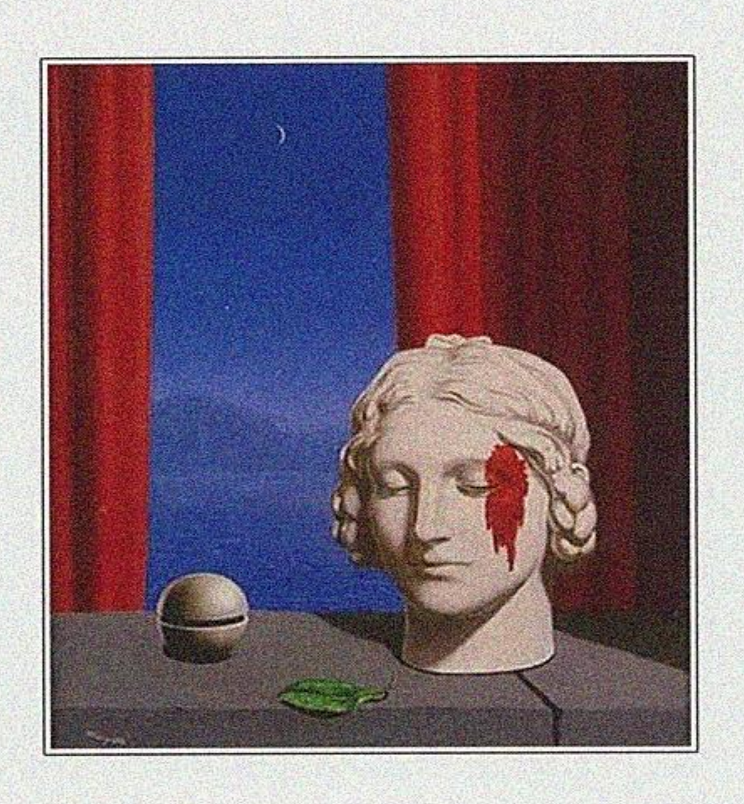
رواية

آميلي نوثومب

نظافة القاتل



ترجمة: عبد الكريم جويطي

المركز الثقافي العربي

آميلي نوثومب

نظافة القاتل

(رواية)

ترجمة عبد الكريم جويطي

المركز الثقافي العربي

هذه ترجمة عن اللغة الفرنسية لكتاب:

Hygiène de L'Assassin

Amélie Nothomb

لقد تم الحصول على حقوق الترجمة العربية
بدعم من الملحقية الثقافية لسفارة فرنسا في المغرب

الكتاب
تظافة القاتل
المولف
آميلي نوثومب
المترجم
عبد الكريم جويطي
الطبعة
الأولى، 2010
عدد الصفحات: 216
القياس: 14 × 21
الترقيم الدولي:
ISBN 978-9953-68-461-8

الناشر
المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء ـ المغرب
ص.ب.: 4006 (سيدنا)
42 الشارع الملكي (الأحباس)
هاتف: 303339 522 ـ 307651 522
فاكس: 305726 ـ 522 212+
Email: markaz@wanadoo.net.ma
بيروت ـ لبنان
ص.ب.: 5158 ـ 113 الحمراء
شارع جاندارك ـ بناية المقدسي
هاتف: 01750507 ـ 01352826
فاكس: 01343701 ـ 961+
Email: cca@ccaedition.com
cca_casa_bey@yahoo.com
www.ccaedition.com

تقديم

إميلي نوثومب كاتبة بلجيكية باللغة الفرنسية وُلدَت في كوبي باليابان في 13 آب عام 1967 لأب (باتريك نوثومب) كان يشغل منصب سفير بلجيكا في اليابان، وبعد ذلك انتقلت مع والديها إلى الصين ثم إلى الولايات المتحدة الأميركية. واكتشفت بلدها الأصلي في سن السابعة عشر.

في سنة 1992 أصدرت عن دار نشر ألبان ميشال روايتها الأولى Hygiène de l'assassin، التي أثارت الاهتمام بالكاتبة لدى القرّاء، وبعد توالي رواياتها، التي بيعت بعشرات الآلاف من النسخ، غدت من أكثر الكتّاب الأوروبيين شهرة.

حازت هذه الرواية التي نضعها بين يدي القارئ العربي تحت عنوان **نظافة القاتل**» عدة جوائز هامة: جائزة رينيه فاليه، وجائزة آلان فورنييه، وحُوِّلت إلى فيلم من إخراج فرانسوا روغييري، وجرى تمثيلها على المسرح من إخراج ديديه لانغ ونقلت إلى الأوبرا من طرف دنيال شال.

يعتبر النقّاد هذه الرواية من أهم ما كتبت إميلي نوثومب لأنها تجسّد موهبتها في أصفى تجلياتها: القدرة على الغوص في السراديب المظلمة للنفس البشرية، الانفتاح السخي على معارف

متعددة (الفلسفة، الأدب، التاريخ، علم النفس...)، تشكيل النص بوصفه محفلاً لصراع الأفكار والرؤى والأصوات، وكل ذلك بلغة مباشرة، حادَّة، وقاسية أحياناً، ودقيقة في رسم مصائر الشخصيات..

عبد الكريم جويطي

عندما شاع بين الناس أن الكاتب الكبير بريتكستا طاش سيموت خلال أجَلٍ أقصاه شهرين، تداعى صحفيون من العالم أجمع طالبين إجراء حوارات خاصة مع الكاتب الثمانيني. من المؤكد أن العجوز كان يحظى بشهرة واسعة، لذا لم تكن الدهشة كبيرة لرؤية مندوبي صحف يومية معروفة (سمحنا لأنفسنا بترجمة أسمائها) على غرار **أصداء نانكان ومراقب بانغلادش** يسارعون إلى سرير الروائي الناطق بالفرنسية. وهكذا، تمكّن السيد طاش قبل وفاته بشهرين من تكوين فكرة عن مدى اتساع حجم شهرته.

تكفّل السكرتير بالقيام بانتقاء دقيق من بين هذه الطلبات: استبعد كل الجرائد الأجنبية لأن المحتضر لا يتكلم إلا الفرنسية ولا يثق بأي مترجم، ورفض الصحفيين الملوّنين لأن الكاتب، مع تقدّمه في السن، صار يتفوّه بأحاديث عنصرية لا تتوافق مع آرائه العميقة، كان المتخصصون بأدب طاش، يرون في هذه الأحاديث تعبيراً عن رغبات الشيخوخة بإثارة الاستنكار. وأخيراً رد السكرتير بأدب طلبات قنوات تلفزيونية ومجلات نسائية، وجرائد معروفة باهتمامها الشديد بالسياسة ومجلات طبية على الأخص أرادت أن تعرف كيف أصيب الرجل العظيم بسرطان نادر كهذا.

عرف السيد طاش، وبما لا يخلو من فخر، بأنه مصاب بالمرض الخطير Elzenveiverplatz المعروف للعامّة بسرطان الغضروف، والذي اكتشفه العالِم الذي سُمّي المرض باسمه في القرن التاسع عشر في كايين لدى دزينة من المساجين الذين ارتكبوا اغتصابات جنسية وختموها بالقتل. ومنذ ذلك الحين لم تتم معاينة حالات مرضية شبيهة أبداً. وقد اعتبر الكاتب هذا بمثابة تشريف له لم يكن منتظراً: فمع جسده البدين الأمرد، الذي يحمل كل صفات الخصي ما عدا الصوت. كان يخاف أن يموت بمرض قلبي وعائي تافه، لذا فإنه حين أوصى بالكتابة على شاهدة القبر لم ينسَ ذكر الاسم الجليل للطبيب التوتوني[1] والذي سيموت بفضله على نحو رائع.

والحق، أن هذا البدين المُقعَد ظل حياً يُرزق، حتى سن الثالثة والثمانين. فإن ذلك قد حيّر الطب الحديث. فهذا الرجل كان سميناً جداً حتى إنه اعترف، منذ سنوات، بأنه لم يعد قادراً على المشي، كما ضرب عرض الحائط بكل وصفات المختصين بالحمية، وواصل التهام الطعام بطريقة شنيعة علاوة على أنه كان يدخّن عشرين سيجار هافانا يومياً. لكنه كان يشرب باعتدال ويمارس العفة الجنسية منذ زمن بعيد جداً. والواقع أن الأطباء لم يجدوا تفسيراً آخر للاشتغال المنتظم لقلبه المخنوق بالشحم. وهكذا فإن بقاءه على قيد الحياة لم يكن أقل لغزيّة من سبب

---

(1) سكان جرمانيا الشمالية.

المرض الذي سيضع نهاية لحياته.

لم تبقَ في العالم صحيفة لم تستنكر خبر هذا الموت الوشيك في وسائل الإعلام. وحمل بريد القراء بشكل واسع أصداء هذا الاستنكار. وكانت تحقيقات الصحفيين القليلين الذين تم اختيارهم من قِبَل السكرتير أكثر تشويقاً حسب قوانين الإعلام الحديث.

قبل أن تحدث هذه الوفاة المنتَظَرَة، اتخذ مترجمو السِّيَر أهبتهم. وأعدّ الناشرون عُدّتهم. وكان هناك أيضاً، بعض المثقفين الذين راحوا يتساءلون عما إذا لم يكن هذا النجاح الباهر مبالَغاً فيه، فهل كان بريتكستا طاش مجدداً حقاً في حقل الأدب؟ ألم يكن سوى وريث حاذق لمبدعين مجهولين لا أكثر؟ وهم يذكرون للتدليل على ذلك أسماء سرية لمؤلفين، لم يقرأوا هم أنفسهم أعمالهم، وهو ما كان يسمح لهم بالتحدث عنهم بعمق وتبحّر.

كل هذه العوامل تضافرت لتؤمّن لهذا الاحتضار أصداء واسعة، وقد حقق ذلك نجاحاً باهراً بالتأكيد.

يسكن الكاتب الذي ألّف اثنتين وعشرين رواية في الطابق السفلي من عمارة متواضعة. كان بحاجة إلى مسكن يسهل الوصول فيه إلى كل شيء، لأنه كان يتنقل بواسطة كرسي متحرّك. كان يعيش وحيداً، من دون أي حيوان أليف. وفي كل يوم كانت تمر ممرضة شجاعة جداً عند الساعة الخامسة لتنظّفه، ولم يكن يقبل بأن تشتري له حاجياته، فكان يذهب لشراء تموينه بنفسه من بقّال الحي. وكان أرنست غرافلان سكرتيره، يسكن في الطابق الرابع. لكنه كان يتجنب ما أمكن رؤيته. كان يهاتفه بنحو منتظم،

ولم يكن السيد طاش ينسى قط بأن يقول له في مستهل المكالمة: آسف يا عزيزي إيرنست، إنني لم أمت بعد.

كان غرافلان يكرر للصحفيين الذين تم انتقاؤهم، كم كان العجوز يتمتع بسريرة نقية. ألم يكن يهب كل سنة نصف مداخيله لمؤسسة خيرية؟ ألم نشعر بتجلي هذا السخاء السري من خلال بعض شخصيات رواياته؟ طبعاً، إنه يروّعنا جميعاً، وأنا الأول، لكنني أؤكد لكم بأن هذا القناع العدواني ليس سوى تدلل، فهو يحب أن يلعب دور البدين السطحي والخشن كي يخفي حساسية مرهفة. لم يطمئن المراسلون لهذا الكلام، إضافة إلى أنهم لا يريدون أن يتخلصوا من الخوف الذي كانوا يُحسَدون عليه، لأنه كان يهبهم هالة مراسلين حربيين.

وقع خبر الموت الوشيك في يوم 10 يناير. وفي يوم 14 منه تمكّن أول صحفي من مقابلة الكاتب. واخترق قلب الشقة المظلمة بحيث احتاج إلى بعض الوقت لتمييز العجوز الضخم الجالس في كرسي متحرك وسط الصالون. اكتفى الصوت الواهن للرجل الثمانيني بـ «صباح الخير سيدي». كان الصوت خالياً من أي تعبير يبعث الراحة في نفس الصحفي، وهو ما شنّج التعيس أكثر.

- أنا مبتهج لمقابلتك سيد طاش، إنه لشرف عظيم بالنسبة لي.

كانت المسجلة جاهزة لالتقاط كلمات العجوز الصامت.

- معذرة سيد طاش، هل بإمكاني إضاءة النور؟ فأنا لا أميّز وجهك.

- إنها الساعة العاشرة صباحاً سيدي، أنا لا أشعل النور في هذه الساعة، ثم إنك ستراني بعد قليل، ما إن تتعود عيناك الظلام. اغتنم إذن هذه المهلة التي مُنِحَت لك واكتفِ بصوتي، إنه أجمل ما لدي.

- صحيح، إن لك صوتاً جميلاً جداً.

- نعم.

وران صمت مقلق للدخيل الذي سجّل في مفكرته: صمت طاش لاذع، ينبغي تجنّبه ما أمكن.

- السيد طاش، أُعجب العالم برمته بإصرارك على رفض الدخول إلى المستشفى رغم أوامر الأطباء. لذا، فإن السؤال الذي يفرض نفسه هنا هو: كيف تشعر الآن؟

- أشعر بأنني مثل ما كنت عليه منذ عشرين سنة.

- بمعنى؟

- أشعر قليلاً.

- قليلاً ماذا؟

- قليلاً.

- نعم فهمت.

- أنا معجب بك.

قالها المريض دون أي نبرة ساخرة في صوته المحايد بنحو عنيد. ابتسم الصحفي ابتسامة صغيرة صفراء قبل أن يتابع:

- سيد طاش، لن أستخدم مع رجل مثلك التوريات الدارجة في مهنتي، لذا سأسمح لنفسي بأن أسألك عن الأفكار

والأحاسيس التي تخطر لكاتب كبير يعرف أنه على شفا الموت.

صمت، صوت تنهد.

- لا أعرف، سيدي.

- لا تعرف؟

- لو كنت أعرف بماذا كنت أفكر، أفترض بأنه ما كان بمقدوري أن أكون كاتباً.

- تريد أن تقول بأنك تكتب لتعرف في النهاية بماذا تفكر؟

- هذا ممكن. لم أعد أعرف جيداً، فأنا لم أكتب منذ مدة طويلة.

- كيف؟ لكن روايتك الأخيرة صدرت منذ أقل من عامين.

- تفريغ للأدراج، سيدي، أدراجي مملوءة جداً بحيث يمكن نشر رواية لي في كل سنة طيلة عقد السنوات الذي سيتلو وفاتي.

- هذا عجيب. متى توقفت عن الكتابة؟

- في التاسعة والخمسين من عمري.

- إذن فإن كل الروايات التي صدرت منذ عشرين سنة كانت تفريغاً للأدراج؟

- أنت تحسب جيداً؟

- كم كان عمرك حينما بدأت الكتابة؟

- من الصعب القول، بدأت وتوقفت عدة مرات. في المرة الأولى كان عمري ست سنوات، كتبت حينذاك تراجيديات.

- تراجيديات في سن السادسة؟

- نعم، صغتها شِعْراً، وتوقفت في السابعة بسبب سقم ألمّ

بي. وفي التاسعة من العمر. عاودتني نكسة الكتابة، وكان من نتيجتها عدد من المراثي، صغتها شعراً أيضاً، كنت أمقت النثر.

- عجيب أن يصدر هذا عن أحد أعظم كتّاب النثر في هذا العصر.

- في الحادية عشرة من عمري توقفت مجدداً، ولم أكتب سطراً واحداً حتى سن الثامنة عشرة.

سَجَّل الصحفي في مفكرته: «يتلقى طاش المديح من دون أن يعترض».

- وفي الثامنة عشر؟

- بدأت من جديد، كنت أكتب قليلاً في البداية، ثم ازدادت الوتيرة شيئاً فشيئاً، وفي الثالثة والعشرين وصلت إلى سرعة رحلتي، وحافظت عليها ستاً وثلاثين سنة.

- ماذا تقصد بـ«سرعة رحلتك»؟

- لم أعد أفعل شيئاً سوى الكتابة، كنت أكتب من دون توقف، باستثناء وقت تناول الأكل والتدخين والنوم، لم يكن لي أي نشاط.

- لم تكن تخرج أبداً.

- إذا كنت مضطراً إلى الخروج، فقط.

- في الواقع، ما من أحد عرف ماذا كنت تفعل خلال الحرب؟

- ولا أنا أيضاً.

- كيف تريد أن أصدقك؟

- إنها الحقيقة، فما بين الثالثة والعشرين من عمري والتاسعة والخمسين كانت الأيام متشابهة جداً، ولديّ من هذه الستة والثلاثين عاماً ذكرى واحدة وحيدة متناسقة ومفرغة كلياً من التعاقب الزمني: كنت أنهض لأكتب، وأنام حين أنتهي من الكتابة.

- ولكنك في النهاية، عايشت الحرب كجميع الناس، كيف كنت مثلاً تفعل للحصول على التموين؟

كان الصحفي يعلم بأنه يدخل على هذا النحو مجالاً مهماً في حياة الثخين.

- نعم، أذكر أنني لم أكن آكل جيداً في تلك السنوات.

- ها أنت ترى.

- لم أعانِ من ذلك، كنت حينذاك نحيلاً، ولم أكن أكولاً، وكان لديّ مؤونة وافية من السجائر.

- متى صرت أكولاً؟

- حين توقفت عن الكتابة. قبل ذلك، لم يكن لدي الوقت للانهماك بالطعام.

- ولماذا توقفت عن الكتابة؟

- يوم بلوغي التاسعة والخمسين، شعرت بأنها النهاية.

- وما الدافع لهذا الإحساس؟

- لا أعرف، كان الأمر شبيهاً بانقطاع الطمث، تركت رواية غير مكتملة. إنه من المفيد جداً للكاتب، في مجرى حياة أدبية ناجحة أن يترك رواية غير مكتملة، فهذا سيمنحه مصداقية. وإلا فيعتبر كاتباً من الدرجة الثالثة.

- إذن فقد أمضيت ثلاثاً وثلاثين سنة تكتب من دون انقطاع، ثم بين ليلة وضحاها: لم تعد تكتب سطراً واحداً؟

- نعم.

- ماذا فعلت إذن خلال الأربع والعشرين سنة التي تلت؟

- قلت لك ذلك، صرت أكولاً.

- طيلة الوقت.

- لنقل بالأحرى، بِنَهَم شديد.

- وعدا هذا؟

- أنت تعرف بأن الأمر يتطلب وقتاً. عدا ذلك لا شيء تقريباً، أعدت قراءة المؤلفات الكلاسيكية. آه، نسيت، اشتريت تلفازاً.

- كيف؟ هل تحب مشاهدة التلفاز؟

- أشاهد الإعلانات، فقط الإعلانات، أحب هذا بشغف.

- ولا شيء آخر؟

- لا، باستثناء الإعلانات، لا أحب مشاهدة التلفاز.

- هذا عجيب، قضيت إذن أربعاً وعشرين سنة تأكل وتشاهد التلفاز؟

- لا، نمت أيضاً ودخّنت، وقرأت قليلاً.

- ورغم ذلك، لم يتوقف سيل الحديث عنك.

- الخطأ في ذلك يعود إلى سكرتيري، إيرنست غرافلان الممتاز، فهو الذي تكفل بإفراغ أدراجي، ومقابلة ناشري، وبناء أسطورتي، وعلى الأخص جلب حتى هنا نظريات الأطباء على أمل إدخالي في حمية.

- بلا طائل.

- لحسن الحظ، سيكون من البلادة بمكان أن أحرم نفسي من الأكل، بما أن سبب سرطاني في المحصلة النهائية، لا يعود لنظام غذائي.

- ما هو سببه إذن؟

- سبب غامض، لكنه ليس غذائياً، فبحسب Elzenvriver platz (كان البدين يلفظ الاسم بتلذذ) ينبغي البحث عن السبب في عارض جيني، مبرمج قبل الولادة. وهكذا كنت على حق إذن في أكل كل ما يطيب لي.

- ولدت وأنت محكوم بالمرض؟

- نعم يا سيدي، على غرار بطل تراجيدي حقيقي. فليحدثوني مرة أخرى عن الحرية الإنسانية.

- ولكنك تمتعت رغم ذلك بوقف تنفيذ طوال ثلاث وثمانين سنة.

- وقف تنفيذ، بالضبط.

- لن تنكر بأنك كنت حراً طيلة هذه الثلاث والثمانين سنة؟ كان بإمكانك مثلاً ألا تكتب.

- هل تلومني إذن، على أنني كتبت؟

- ليس هذا ما أردت قوله.

- آه، خسارة كنت سأبدأ باحترامك.

- ألا تأسف، مع ذلك، لأنك كتبت؟

- أأسف؟ أنا غير قادر على الأسف. هل تريد كاراميلا؟

- لا شكراً.

التقم الروائي قطعة كاراميلا ومضغها بصوت مسموع.

- سيد طاش، هل تخشى الموت؟

- لا أبداً، ليس الموت تحوّلاً كبيراً بالضرورة، ولكنني بالمقابل، أخاف أن أتألم، لقد ادّخرت من المورفين ما يمكنني أن أحقن به نفسي لوحدي. أنا لست خائفاً.

- أتعتقد بأن هناك حياة بعد الموت؟

- لا.

- إذن، فأنت تعتقد بأن الموت فناء؟

- كيف يمكن أن نفني ما هو فانٍ؟

- هذا جواب مدهش.

- هذا ليس جواباً.

- فهمت.

- أنا أقدّرك.

- في النهاية كنت أريد أن أقول (حاول الصحفي أن يبتكر ما كان يريد قوله، متظاهراً بأن ما أعاقه مشكلة تتعلق بالصياغة) بأن الروائي هو من يطرح أسئلة وليس من يجيب.

خيّم صمت كصمت الموت. وتابع الصحفي:

- باختصار، ليس هذا ما أردت أن أقوله بالضبط.

- لا؟ مع الأسف، أعتقد، بصدق، بأن ذلك كان جيداً.

- وإذا تكلمنا الآن عن أعمالك؟

- إذا أردت ذلك.

- أنت لا تحب الكلام عنها. أليس كذلك؟

- لا يمكن أن أخفي أي شيء عنك.

- ككل الكتّاب الكبار، أنت تحس بخجل عظيم لدى الكلام عن كتابتك.

- خجل، أنا؟ من المؤكد أنك مخطئ.

- يظهر أنك تستمتع بالحط من قيمتك، لماذا تنكر بأنك خجول؟

- لأني لست كذلك، يا سيدي.

- إذن، لماذا تنفر من الكلام عن رواياتك؟

- لأن الكلام عن رواية لا معنى له.

- ورغم ذلك من المثير سماع كاتب يتحدث عن إبداعه، ليقول كيف، ولماذا وضدّ ماذا كتب.

- إذا تمكن كاتب ما، بأن يصير مثيراً في هذا المجال، فليس هناك سوى احتمالين اثنين إذن: إما أنه يكرر بصوت عالٍ ما كتبه في كتابه، وهو بهذا يكون ببغاء. وإما أنه يوضح الأشياء المهمة التي لم يتحدث عنها في كتابه. وفي هذه الحالة يكون الكتاب المذكور فاشلاً لأنه لم يكن مكتفياً بذاته.

- ورغم ذلك. نجح عدد لا بأس به من الكتّاب في الحديث عن كتبهم متجنبين هذه المنزلقات.

- أنت تناقض نفسك: منذ دقيقتين، قلت لي بأن كل الكتّاب الكبار يشعرون بخجل عميق حينما يجري الحديث عن كتاباتهم.

- ولكن يمكن الحديث عن عمل أدبي مع الحفاظ على سرّه.

- آه، نعم؟ هل حاولت هذا سابقاً؟
- لا ، ولكنني لست كاتباً.
- إذن، باسم من تقول لي هذه الترهات.
- أنت لست أول كاتب أحاوره.
- أتجرؤ هكذا على مقارنتي بالكتّاب الرديئين الذين تحاورهم في العادة؟
- لم يكونوا كتّاباً رديئين.
- إذا تمكنوا من الحديث عن أعمالهم بنحو مثير، وهم يشعرون بالخجل، مع ذلك، فهم من دون شك كتّاب رديئون. كيف تريد أن يكون كاتب ما خجولاً؟ إنها المهنة الأبعد عن الخجل في العالم، فمن خلال الأسلوب، والأفكار، والحكايات، والأبحاث، لا يتحدث الكتّاب إلا عن أنفسهم، وزيادة على ذلك فهم يفعلون هذا بالكلمات. الرسامون والموسيقيون يتحدثون عن أنفسهم هم أيضاً، ولكن بلغة أقل فجاجة من لغتنا. لا ، يا سيدي، الكتّاب داعرون. وإذا لم يكونوا كذلك، فسيكونون محاسبين، سائقي قطار، عاملي هاتف، وسيكونون محترمين بالتأكيد.
- ليكن الأمر كذلك، فسّر لي إذن لماذا أنت خجول جداً؟
- ماذا تعني لي هنا؟
- ولكن نعم، ها قد مرّت ستون سنة، وأنت كاتب مكرّس، ومع ذلك، فهذا أول حوار تجريه، أنت لا تظهر أبداً في الجرائد، ولا تشارك في أي حلقة أدبية أو غير أدبية، ولا تغادر

هذه الشقة إلا للقيام بالتسوق. بل حتى لا يُعرَفُ لك أي صديق، فإذا لم يكن هذا خجلاً فما هو؟

- هل تعودت عيناك على الظلمة؟ أتميز وجهي الآن؟

- نعم، لكن من دون وضوح.

- ذلك أفضل لك، اعلم سيدي بأنني لو كنت جميلاً، لما عشت معزولاً. في الواقع، لو كنت جميلاً لما صرت أبداً كاتباً، كنت سأكون مغامراً، تاجر عبيد، ساقياً في حانة، ساعياً إلى امتلاك مال زوجة.

- على هذا النحو، أنت تقيم رابطاً بين مظهرك الجسدي وبين قَدَرك.

- هذا ليس قدَراً، لقد حدث هذا حين تبيّنت قبحي.

- متى تبينت ذلك؟

- على نحو سريع، كنت دائماً قبيحاً.

- ولكنك لست قبيحاً جداً.

- أنت على الأقل تتحلى باللياقة.

- على كل حال، أنت بدين ولكنك لست قبيحاً.

- ماذا يلزمك لتتأكد؟ أربعة ذقون، عينا خنزير، أنف كحبة بطاطس، لا شعرة واحدة في الرأس، سوى فوق وجنتيّ، الرقبة مجعّدة تتدلى منها الطيات الذهنية، والخدان متهدلان. سأكتفي بالوجه احتراماً لك.

- هل كنت دائماً بمثل هذه البدانة؟

- منذ سن الثامنة عشرة، كنت هكذا، يمكنك أن تقول بدين، فهذا لا يغيظني.

- نعم، بدين لكن المرء يراك من دون أن يشعر بالنفور.

- أوافقك بأنه يمكنني أن أكون أكثر تنفيراً أيضاً، يمكنني أن أكون مصاباً بداء الكويبيروز[1] مكسواً بالثآليل.

- غير أن بشرتك جميلة، بيضاء نقية، يمكن أن نخمّن بأنها ناعمة الملمس.

- ملامح خصي، يا سيدي العزيز، هناك شيء مضحك في أن تكون لك بشرة كهذه في الوجه وخصوصاً في وجه ممتلئ الخدين وأمرد. الواقع أن وجهي يشبه ردفين جميلين أملسين ورخوين. إنه رأس يثير الضحك أكثر مما يدعو إلى التقيؤ. كنت أفضّل أحياناً أن يكون مدعاة للتقيؤ، فذلك منشط أكثر.

- لم أكن أعرف أبداً بأنك تعاني من مظهرك.

- أنا لا أعاني، المعاناة تصيب الآخرين الذين يرونني. أنا لا أرى نفسي. لا أنظر إلى نفسي أبداً في المرآة، سأعاني لو كنت قد اخترت حياة أخرى، أما بالنسبة للحياة التي أحياها فإن هذا الجسد يناسبني.

- هل كنت تفضّل اختيار حياة أخرى؟

- لا أعرف، يحدث لي أن أفكر بأن جميع الحيوات متعادلة. من المؤكد أنني لا أشعر بالأسف. ولو كان لي مجدداً ثماني عشرة سنة. والجسم نفسه، فسأكرر ما فعلته، سأعيد إنتاج ما عشته بالضبط.

---

(1) العقدة الوردية: تورد الوجه بسبب تمدد الشعيرات الدموية.

- الكتابة ليست هي الحياة؟

- لستُ مؤَهّلاً للجواب على هذا السؤال، فأنا لم أعرف أبداً شيئاً آخر.

- أصدرت اثنتين وعشرين رواية، ووفقاً لما قلت لي، ستصدر المزيد منها أيضاً، هل هناك بين حشد الشخصيات التي تتحرك في أعمالك الهائلة، شخصية تشبهك بنحو خاص؟

- لا أحد فيها يشبهني.

- حقاً؟ سأقدم لك اعترافاً، هناك شخصية من شخصياتك، تبدو شبيهة بك.

- آه.

- نعم البائع الغامض للشمع في رواية **«صلب من دون ألم»**.

- هو؟ أي فكرة حمقاء هذه!

- سأقول لك لماذا؟ حين تتحدث تلك الشخصية، فأنت تكتب دائماً على لسانها بأنه: صلب متخيَّل.

- وبعد؟

- إنها ليست مغفّلة، فهي تعرف أنه متخيِّل.

- القارئ أيضاً يعرف، ولهذا فهي لا تشبهني.

- وهَوَسها بصنع قوالب من شمع لوجوه مصلوبة. أنت إذن ذلك البائع. أليس كذلك؟

- لم أصنع أبداً قوالب لمصلوبين، أؤكد لك.

- بالطبع، لكنها استعارة لتصوير ما تفعله أنت.

- ماذا تعرف عن الاستعارات أيها الشاب؟

- ما يعرفه الجميع.

- إجابة رائعة، ولكن الناس لا يعرفون شيئاً عن الاستعارات، إنها كلمة رائجة للغاية، لأن لها مظهراً متغطرساً: كلمة الاستعارة، إن آخر الأميين يعرف بأنها جاءت من اليونانية، جنون أنيق، هذه الاشتقاقات المتكرِّشة - المتكرِّشة حقاً: فحين نعرف التعدد الهائل لمعاني كلمة Méto والحيادات المتطفلة للفعل phero، علينا، إن كانت لنا طوية سليمة، أن نستنتج بأن كلمة استعارة تعني أي شيء، زد على ذلك، أننا لدى استماعنا إلى استخدامات الكلمة، نصل إلى نتيجة مشابهة.

- ماذا تقصد؟

- ما قلته بالضبط، أنا أعبّر عن أفكاري بواسطة استعارات.

- وماذا عن قوالب الشمع هذه إذن؟

- قوالب الشمع، هي قوالب شمع يا سيدي.

- أنا بدوري، أشعر بالخيبة يا سيد طاش، لأنك إذا استبعدت كل تأويل استعاري فلن يتبقى من أعمالك إلا مذاق سيئ.

- هناك مذاق سيئ ومذاق سيئ، هناك المذاق السيئ الصحي والمقوّي الذي يرتكز على ابتكار قباحات من أجل غايات نظيفة، مطهِّرة ومَرِحَة وذكورية على غرار قيء يتحكم به المتقيئ. وهناك المذاق السيئ الآخر الخلاصي، والذي حين تصدمه هذه القباحات المنفّرة، فإنه يحتاج إلى بذلة واقية ليشق لنفسه معبراً، بذلة الغوّاص هذه هي الاستعارة التي تسمح للاستعاري المطمئن النفس بأن يهتف فرحاً: «عبرت طاش من أوله إلى آخره من دون أن أتسخ».

- ولكن، هذا الكلام استعارة أيضاً.

- بطبيعة الحال: أنا أحاول تحطيم الاستعارة باستعمال أسلحتها الخاصة. لو كنت أريد أن ألعب دور المخلّص؟؟، لو كان عليّ أن أحمّس الحشود، لكنت صرخت: أيها الأغرار، هلمّوا إلى قداسي الذي ينجّيكم: فلنستعر الاستعارات، فلنخلطها، ولنمزجها، ولنخفقها لنحوّلها إلى نفاخة ونجعلها تنتفخ وتنتفخ على نحو رائع، حتى تبلغ أوجها ثم تنفجر في النهاية. أيها الأغرار، فلتسقط بعد ذلك ولتضمحل وتحبط آمال المدعوين، وكل ذلك من أجل سعادتنا الكبرى.

- إن كاتباً يكره الاستعارات هو كاتب عبثي، مثله مثل مصرفيّ يكره النقود.

- أنا على يقين بأن رجال المصارف الكبار يكرهون النقود، لا شيء عبثي هنا مع ذلك، على العكس.

- والكلمات، أنت تحبها مع ذلك؟

- آه، أنا أعبد الكلمات، ولكن لا علاقة لهذا بالكلمات، إنها المادة الجميلة، التوابل المقدسة.

- الاستعارة إذن هي المطبخ، وأنت تحب المطبخ.

- لا يا سيدي، ليست الاستعارة هي المطبخ، النحو هو المطبخ. الاستعارة هي سوء النية، هي أن تعضّ على حبة طماطم، وتؤكد بأن لهذه الحبة طعم العسل، ثم تبتلع العسل وتؤكد بأن لهذا العسل طعم الزنجبيل، ثم تقضم الزنجبيل، وتؤكد بأن لهذا الزنجبيل طعم الزعبوب، وبعد ذلك...

- نعم، فهمت، لا فائدة من المتابعة.

- لا ، لم تفهم، فلكي أفهمك بحق ما هي الاستعارة، ينبغي أن أواصل هذه اللعبة الصغيرة طيلة ساعات، لأن الاستعاريين لا يتوقفون أبداً، إنهم لا يتوقفون حتى يحطم أحد المحسنين فكّهم.

- المحسن هو أنت كما أخمّن؟

- لا ، كنت أنا دائماً رخواً طيباً.

- طيّب، أنت طيب؟

- بنحو فظيع، لا أعرف شخصاً بمثل طيبتي. وهذه الطيوبة فظيعة، لأنها ليست طيبوبة أصيلة في طبعي تجعلني طيباً، ولكنها راجعة إلى التعب، وخصوصاً إلى الخوف من فورات الغضب، فأنا سريع الغضب، وأعاني كثيراً جداً من نوبات الغضب هذه، لذا فإنني أتحاشاها كالطاعون.

- أنت تحتقر الطيبوبة؟

- إنك لا تفهم شيئاً مما أقوله، أنا معجب بالطيبوبة التي تستمد جذورها من التسامح أو من الحب، هل تعرف أناساً كُثراً يمارسون هذه الطيبوبة؟ في الغالب الأعم، حين يكون الناس طيبين، فلكي ندعهم وشأنهم.

- لنقبل هذا، لكنه لا يكشف لي لماذا كان بائع الشمع يصنع قوالب لمصلوبين؟

- ولم لا؟ ليست هناك مهنة بلهاء، أنت صحفي، هل سألتك لماذا أنت كذلك؟

- يمكنك هذا. أنا صحفي لأن هناك حاجة إليّ، لأن الناس يهتمون

بمقالاتي، لأن مقالاتي تُشترى، ولأن هذا يسمح لي بنقل خبر.

- لو كنت مكانك، لما افتخرت بهذا.

- في النهاية، سيد طاش، على المرء أن يعيش؟؟

- أتعتقد ذلك؟

- هذا ما تفعله أنت. أليس كذلك؟

- ينبغي إثبات ذلك.

- هذا ما يفعله بائع شمعك، على كل حال.

- أنت تشغل نفسك ببائع الشمع الطيب هذا، لماذا يصنع قوالب للمصلوبين؟ أعتقد أنه يفعل ذلك لأسباب تعاكس أسبابك: لأن هذا العمل لا يحتاجه أحد، ولأنه لا يثير اهتمام الناس، ولأن هذه القوالب لا تُشترى منه، ولأن هذا لا يسمح له بأن ينقل أي خبر.

- هو تعبير عن العبث، إذن؟

- ليس أكثر عبثاً مما تفعلونه أنتم رجال الصحافة، هل تريد رأيي، أتريده حقاً؟

- بالطبع أنا صحفي.

- بالضبط.

- ولماذا هذه العدوانية إزاء الصحفيين؟

- ليست موجَّهة للصحفيين، بل موجهة لك أنت.

- ماذا فعلت لأستحق هذا؟

- هذا يتجاوز الحد، لم تتوقف عن شتمي، وعن وصفي بالاستعاري، واتهامي بالذوق السيئ، والقول بأنني لست قبيحاً

إلى هذا الحد، وإزعاج بائع الشمع، والأنكى من كل هذا تدّعي بأنك تعرفني.

- ولكن... ماذا كان علي أن أقول غير ما قلته؟

- هذه مهمتك... لا مهمتي أنا، إذا كان المرء غبياً مثلك، فلا ينبغي له أن يأتي للتحرش ببريتكستا طاش.

- أنت سمحت لي بهذا.

- بالتأكيد لا، إنه ذلك المغفّل غرافلان، والذي ليس لديه أي حس للتمييز.

- في البداية قلت بأنه رجل ممتاز.

- هذا لا يلغي الحماقة.

- هيا سيد طاش، لا تجعل نفسك أكثر قبحاً مما أنت عليه.

- أنت شخص فظ، اخرج حالاً.

- لكن.. الحوار لم يكد يبدأ.

- بل طال أكثر مما يجب، أيها الوقح، أغرب عن وجهي، وقل لزملائك بأن عليهم احترام بريتكستا طاش.

ولاذ الصحفي بالفرار وذيله بين رجليه.

كان زملاءه يرتشفون فناجين القهوة في المقهى المقابل ولم يتوقعوا رؤيته مبكراً على هذا النحو، أشاروا إليه، فأقبل التعيس نحوهم مخضرّ اللون، وتهاوى بينهم.

بعد أن طلب قدحاً من خمر بورتو فليب المثلثة. وجد لديه القدرة على أن يروي لهم مغامرته. كانت تفوح منه رائحة كريهة أشبه برائحة يونس حين خرج من بطن الحوت، وكان محاوروه

منزعجين من ذلك. هل كان هو يحس برائحة عفونته هذه؟ هو نفسه ذكر يونس.

- إنه بطن الحوت، أؤكد لكم، كل شيء فيه يذكّر ببطن الحوت، الظلمة، والبشاعة، والخوف، وفوبيا الأماكن المغلقة.

- والنتانة؟ جازف أحد الزملاء.

- إنها الشيء الوحيد الناقص، ولكنه جوف حقيقي، هذا الشخص، أملس مثل كبد، منتفخ مثلما ينبغي أن تكون معدة، خادع كطحال، مرّ كمرارة، بمجرد أن نظر إلي أحسست بأنه يهضمني، يذيبني في عصارة جهازه الهضمي الهائل.

- هيا، أنت تبالغ!

- على العكس، لن أجد أبداً تعبيراً أكثر قوة. لو رأيتم غضبه في النهاية، لم أرَ في حياتي غضباً مخيفاً إلى هذا الحد، مفاجئاً ومتحكّماً فيه بشكل جيد، في الآن نفسه، كنت أنتظر من هذه الكتلة الضخمة، احمرارات، تورّمات، صعوبات في التنفس، تعرقات مقززة، لكن لا شيء من هذا. ولم يكن لغضبه المستشيط من معادل سوى برودته. والصوت الذي أمرني به بأن أخرج، تخيلته شبيهاً بالطريقة التي كان يتحدث بها أباطرة الصين حين يأمرون بقطع فوري للرؤوس.

- أعطاك على كل حال الفرصة للعب دور البطل.

- أتعتقد ذلك؟ لم أحس أبداً بأني مثير للشفقة إلى هذا الحد.

ابتلع البورتو فليب وانفجر باكياً.

- هيا، ليست المرة الأولى التي يقال فيها لصحفي بأنه أبله.

- آه، قيل لي سابقاً أفظع من هذا، ولكن هنا - وبالطريقة التي كان يتحدث بها ذلك الوجه الأملس، والبارد للتعبير عن الاحتقار - كان الأمر مفحماً.

- أتسمح بأن نسمع التسجيل؟

- وكشفت المسجلة بصمت ديني حقيقتها، والتي هي بالضرورة جزئية ما دامت مفصولة عن السحنة الوديعة، والعتمة، وعن اليدين الضخمتين الخاليتين من التعبير، وعن الجمود العام، عن كل هذه العناصر التي ساهمت في جعل الرجل المسكين يفوح بالنتانة من الخوف. وعندما انتهوا من السماع، لم يفوّت الزملاء، الكلاب في ثياب آدمية، الفرصة لمناصرة الروائي والإعجاب به. وسارع كل منهم إلى تقديم تعليق صغير لتوبيخ الضحية.

- أنت سعيت إلى هذا يا عجوزي، تحدثت معه عن الأدب ككتاب مدرسي، أنا أتفهّم رد فعله.

- لماذا أردت مطابقته مع إحدى شخصياته؟ هذا أمر سطحي جداً.

- وهذه الأسئلة حول سيرته الذاتية، إنها لم تعد تثير اهتمام أحد. ألم تقرأ بروست[1]! «ضد سانت بوف»[2]؟

- أي مهزلة أن تذهب لتقول له بأنك متعوّد على محاورة الكتّاب؟

---

(1) مارسل بروست، كاتب فرنسي (1871 - 1922) روائي وشاعر. اشتهر بروايته العظيمة البحث عن الزمن الضائع.

(2) سانت بوف ناقد أدبي وكاتب فرنسي (1804 - 1869) اعتبر أن عمل الكاتب انعكاس لحياته.

- أي فظاظة أن تقول له بأنه ليس قبيحاً؟ قليلاً من اللياقة يا عجوزي المسكين.

- ثم الاستعارة، ها هنا تمكَّن منك، لا أريد أن أسبب لك ألماً، ولكنك تستحق ذلك.

- بصراحة، أن تتحدث عن العبث مع عبقري كطاش، فهذه حلوى بالكريمة.

- في كل الأحوال، ثمة شيء تكشف عنه بوضوح محاورتك الخائبة: إنه شخص رائع. أي ذكاء!.

- أي بلاغة!

- أي رهافة لدى هذا البدين!

- أي اختصار للأذى!

- أنتم تعترفون على الأقل بأنه مؤذ، صاح التعيس، متشبّثاً بهذه الكلمة، آخر خشبة نجاة.

- لم يكن مؤذياً جداً، إذا أردت رأيي.

- بل إنني وجدته طيباً معك.

- ومسلياً، فحين بلغت بك البلاهة - اعذرني - أن تقول له بأنك تفهمه، كان بإمكانه وبكل مشروعية أن يوجِّه لك شتائم مقذعة، ولكنه اكتفى بالرد بدعابة، وبتلميح يبدو أنك لم تتمكن من اكتشافه.

- mangaritas ante porcos.

طلبت الضحية مجدداً بورتو فليب مثلثاً.

أما بريتكستا طاش فكان يفضّل خمرة ألكسندرا. كان يشرب

قليلاً، لكنه إذا أراد أن يفرط بعض الإفراط، يشرب دائماً ألكسندرا. كان يحرص على أن يحضّرها بنفسه، لأنه لم يكن يثق بمقادير الآخرين. كان لهذا البدين العنيد عادة تكرار قول مأثور له، متلذذاً بفظاظته: «تقاس سوء طوية شخص ما من طريقته في مزج مقادير ألكسندرا».

إذا طبقنا هذه المسلّمة على طاش نفسه نكون مرغَمين على أن نستخلص بأنه تجسيد لسلامة الطوية، جرعة واحدة من ألكسندرا تكفي لفوزه بالجائزة في مباراة مصّ صفار البيض نيئاً أو بالحليب المركّز المحلّى، كان الروائي يكرع أقداحاً كبيرة من دون أدنى انزعاج. وقال مرة لغرافلان الذي صعقته الدهشة: أنا ميتريدات ألكسندرا.

فرد السكرتير:

- ولكن هل ما يزال من الممكن الحديث عن ألكسندرا؟

- هذه خلاصة ألكسندرا التي لن يعرف الغشاشون سوى تخفيفها المعيب بالماء حيال حكم صارم كهذا، لا شيء يمكن إضافته.

الفصل الثاني

- سيد طاش، قبل كل شيء، أود أن أقدم لك اعتذار المهنة برمّتها على ما حدث البارحة.

- ماذا حدث البارحة إذن؟

- حسناً، هذا الصحفي الذي أساء إلينا بإزعاجك.

- آه، أتذكر، إنه فتى ودود جداً، متى سأراه مجدداً؟

- لن تراه أبداً، اطمئن، إذا كان هذا يمكن أن يسعدك، إنه اليوم مريض ككلب.

- الفتى المسكين، ماذا وقع له؟

- أفرط في شرب البورتو فليب.

- عرفت دائماً بأن البورتو فليب قذارة، لو كنت أعرف ميله إلى الشراب المنشّط لأعددت له ألكسندرا جيدة، لا شيء أفضل منها للهضم، هل تريد ألكسندرا أيها الشاب؟

- لا أشرب خلال العمل، شكراً.

لم يلاحظ الصحفي نظرة الارتياب الحاد التي ولّدها هذا الرفض.

- سيد طاش، لا ضرورة للانزعاج من زميلي الذي قابلته البارحة، نادرون هم الصحفيون الجديرون بمقابلة أشخاص مثلك. لا بد من قول هذا.

- لم يكن ينقص إلا هذا، تأهيل أناس شجعان لمقابلتي، تدريب يمكن تسميته «فن مقابلة العباقرة» أي فظاعة؟

- أليس كذلك؟ أستخلص من هذا بأنك لست غاضباً من زميلي، شكراً على تسامحك.

- هل جئت لتكلمني عن زميلك أم لتحدثني عن نفسي؟

- بل عنك، بالتأكيد. كان هذا بمثابة تمهيد فقط.

- مع الأسف، الواقع، أن أفق هذه المقابلة يرهقني إلى حد أنه يشعرني بالحاجة إلى ألكسندرا، هل تسمح بالانتظار بضع لحظات، الخطأ خطأك، كان عليك ألا تحدثني عن ألكسندرا، فقد ولّدت لدي قصصك الرغبة بها.

- لكنني لم أحدثك عن ألكسندرا.

- لا تكن سيئ النية، أيها الشاب، أنا لا أحتمل سوء النية، أما زلت غير راغب بشرابي؟

لم يدرك الصحفي بأن طاش كان يقدم له الفرصة الأخيرة، وهكذا تركها تفلت من بين يديه. رافعاً كتفيه العريضين، حرك الروائي كرسيه المتحرك نحو شيء شبيه بتابوت، ورفع غطاءه كاشفاً عن زجاجات وعن معلّبات وأقداح كبيرة:

- إنها بيرة مروفنجية، أوضَحَ البدين، أعددتها في البار.

تناول كأساً كبيرة معدنية، وسكب فيها مقداراً كبيراً من كريمة الكاكاو ثم أضاف إليها بعض الكونياك، وبعد ذلك، رمق الصحفي بنظرة ماكرة.

- والآن ستعرف سر المعلّم، الناس يمزجون الثلث الأخير

بكريمة طازجة. لكنني أجد هذا ثقيلاً بعض الشيء، لهذا عوّضت هذه الكريمة بمقدار لا بأس به من (وتناول علبة محفوظات) حليب مركّز مُحلّى (كان يقرن الحركة بالقول).

- ولكن سيكون هذا بالتأكيد مقززاً جداً. هتف الصحفي بتعجُّب مفاقماً حالته.

- في هذه السنة كان الشتاء رحيماً، ولكن حين يكون قاسياً، فأنا أزيّن ألكسندرا بقطعة كبيرة من زبدة ذائبة.

- عفواً؟!

- نعم، الحليب المركّز أقل دسماً من الكريمة، لذا ينبغي التعويض عنه. وبما أننا في الواقع، في 15 يناير، فسأكون نظرياً على حق في إضافة هذه الزبدة، ولكن عليّ من أجل هذا أن أذهب إلى المطبخ وأتركك لوحدك، وهو أمر غير لائق، لذا سأستغني عن الزبدة.

- أرجوك، لا تزعج نفسك من أجلي.

- لا، للأسف، على شرف الإنذار النهائي لأزمة الخليج الذي سينتهي الليلة، سأحرم نفسي من الزبدة.

- هل تشعر بأنك معني بأزمة الخليج؟

- إلى درجة أنني لا أضيف الزبدة إلى ألكسندرا.

- هل تتابع جيداً الأخبار في التلفزة؟

- بين وصلتين إعلانيتين، يحدث أن أسمع بعض الأخبار.

- ما هو تصورك لأزمة الخليج؟

- لا شيء.

- ولكن؟

- لا شيء.

- ألست معنياً بها؟

- لا أبداً، ما يمكن أن أتصوره لا معنى له، لا ينبغي أن تطلب رأي رجل بدين حول هذه الأزمة. لست جنرالاً ولا محباً للسلام ولا إطفائياً ولا عراقياً! بالمقابل إذا سألتني عن ألكسندرا فسأكون لامعاً.

وكخاتمة لهذه الانطلاقة الجميلة رفع الروائي الكأس المعدنية إلى شفتيه وابتلع بضع جرعات بنهم.

- لماذا تشرب في كأس معدنية؟

- لا أحب الشفافية، هذا أيضاً من بين الأسباب التي بسببها أنا بدين كل هذه البدانة: أحب أن لا يُرى أي شيء من خلالي.

- بهذا الصدد. سيد طاش، أود طرح السؤال الذي يجب كل الصحفيين أن يطرحوه عليك ولكن لا أحد منهم يتجرأ على ذلك.

- كم هو وزني؟

- لا، بل ماذا تأكل؟ من المعروف بأن هذا يشغل حيّزاً كبيراً في حياتك. فالذواقة وعواقبها الطبيعية على الهضم. هي في قلب بعض رواياتك الأخيرة مثل، **مديح التخمة** وهو عمل يتضمن، كما يبدو لي، خلاصة اهتماماتك الميتافيزيقية.

- بالضبط، أنا أعتبر بأن الميتافيزيقا هي الشكل التعبيري الأمثل للعملية الهضمية، وضمن هذا النمط من الأفكار، فإن عملية الهضم ما دامت تنقسم إلى بناء وانهدام. فقد قسمت

الميتافيزيقا إلى بنافيزيقي ونهيدافيزيقي. ولا ينبغي أن نرى في ذلك نزوعاً نحو الثنائية بل أن نرى الطورين الحتميين فيهما؛ والمزعج في الأمر أنهما متزامنان ضمن سيرورة فكرية آيلة إلى الابتذال.

- ألا يمكن أن نرى في ذلك تلميحاً إلى **ألفريد جاري**[1] وإلى الباتافيزيقا.

- لا، سيدي، أنا كاتب جاد. أجاب العجوز بنبرة باردة، قبل أن يبتلع مجدداً جرعة من ألكسندرا.

- من فضلك إذن، سيد طاش، هل يمكنك رسم المحطات الهضمية ليوم عادي في حياتك؟

خيّم صمت جليل، بدا خلاله الروائي غارقاً بالتفكير، ثم بدأ يتحدث برصانة شديدة، كأنه يبوح بأسرار.

- في الصباح، أستيقظ حوالى الثامنة، فأذهب قبل كل شيء، إلى المرحاض لأفرغ مثانتي وأمعائي، أتريد تفاصيل عن ذلك؟

- لا، أعتقد أن هذا يكفي.

- هذا أفضل، لأنها مرحلة ضرورية بالتأكيد في السيرورة الهضمية. ولكنها منفّرة كلياً. يمكنك أن تثق بي.

- أنا أثق بك.

- سعداء أولئك الذي يؤمنون من دون أن يروا. بعد أن أرشّ البودرة على جسمي ألبس ثيابي.

---

(1) أبدع الكاتب ألفريد جاري مفهوم الباتافيزيقا بوصفها علماً للحلول المتخيلة.

- هل ترتدي هذا المئزر المنزلي دائماً.

- نعم، إلا إذا خرجت لشراء بعض الحاجات.

- ألا يعيقك عجزك عن القيام بهذه الأعمال؟

- كان لدي الكثير من الوقت كي أتعلم. ثم، أتوجه إلى المطبخ وأعد الفطور. في السابق، حين كنت أمضي أيامي في الكتابة، لم أكن أطبخ، كنت أتناول أطعمة خشنة كالأحشاء الباردة.

- أحشاء باردة في الصباح؟

- أتفهّم اندهاشك. ينبغي أن أقول لك بأن الكتابة كانت في تلك الفترة هي انشغالي الأساسي، لكنني الآن أكره أكل أحشاء باردة في الصباح، منذ عشرين عاماً تعوّدت على شيّها لمدة نصف ساعة بدهن الأوز.

- أحشاء بدهن الأوز في الفطور؟

- هذا رائع.

- وهل تشرب معها ألكسندرا؟

- لا، أبداً ليس مع الأكل. حين كنت أكتب كنت أرتشف قهوة قوية، أما الآن فأفضّل شراب صفار البيض الممزوج بالحليب، وبعد ذلك أخرج لشراء الحاجات، وأقضي الصبيحة وأنا أعدّ أكلات شهية للغداء: فطيرة بالمخ، كلى مطهوة بالكمر.

- مع تحليات منوّعة؟

- هذا نادر، فأنا لا أشرب إلا الماء المُحلّى بالسكر، لذا لا أشعر قط بالرغبة في التحلية. بعد ذلك وبين الوجبات أتناول

أحياناً قطعة كاراميلا. حين كنت شاباً، كنت أفضّل الكاراميلا الأسكتلندية الصلبة جداً. ولكنني، للأسف، تحولت مع التقدم بالسن إلى الكاراميلا الطرية الرائعة، مع ذلك، أزعم بأنه ما من شيء يمكن أن يعوّض هذا الإحساس بالغوص الحسي المصاحب لخدر الفك الذي يولده مضغ الحلوى الإنكليزية. سجّل ما أقوله يبدو لي بأن له إيقاعاً جميلاً.

- لا داعي لذلك، كل شيء مسجّل.

- كيف؟ ولكن هذا لؤم. أليس بمقدوري إذن قول حماقات؟

- أنت لا تقول حماقات أبداً يا سيد طاش.

- أنت مخادع يا سيد مثل نمّام.

- أرجوك تابع إذن درب الصليب الهضمي.

- درب الصليب الهضمي؟ صيغة موفَّقة، ألا تكون قد اختلستها من إحدى رواياتي؟

- لا، إنها لي.

- هذا يدهشني، أقسم بأنها لبريتكستا طاش، منذ زمن كنت أحفظ أعمالي عن ظهر قلب، وأأسفاه. للإنسان سن للذاكرة أليس كذلك؟ وليس له سن للشرايين كما يقول البلداء، لنر «درب الصليب الهضمي» أين إذن كتبت هذا؟

- سيد طاش، مع أنك كتبت هذا، فلن أكون أقل جدارة في أن أقول ذلك. بما أنني..

توقف الصحفي وهو يعض شفتيه

- بما أنك لم تقرأ لي قط سطراً واحداً، أليس كذلك؟ شكراً

أيها الشاب، هذا كل ما أردت أن أعرفه. من أنت كي تبتلع هراء بهذا الحجم؟ هل يمكن أن أبتدع تعبيراً بمثل هذه الرداءة، وبمثل هذا الرنين الزائف؟ «درب الصليب الهضمي» إنه تعبير لاهوتي من الدرجة الثانية، مثلك، وألاحظ أخيراً، بشعور من طمأنينة الشيخوخة، بأن عالم الأدب لم يتغير: إنه ما يزال على عهده. نجاح باهر لأولئك الذين يتظاهرون بقراءة كذا وكذا، أما في عهدكم هذا فأنتم محرومون من أي جدارة: إذ تتوفر اليوم كراسات تتيح للأميين التحدّث عن كبار الكتّاب بمظهر من يتمتع بثقافة متوسطة. هنا أيضاً، أنت تخدع نفسك، فأنا أعتبر عدم قراءة رواياتي كمزية حسنة، سأعجب إعجاباً حاراً بالصحفي الذي يأتي ليسألني دون أن يعرف حتى من أكون، ودون أن يخفي جهله هذا، لكن أن لا يعرف شيئاً عني باستثناء أنواع من الحليب اللبني المجفف، على غرار: «أضيفوا الماء وستحصلون على حليب لبني جاهز للاستعمال» فهل يمكن أن تتخيل رداءة كهذه؟

- حاول أن تفهم وضعي، نحن الآن في 15 من الشهر وخبر إصابتك بالسرطان ظهر في اليوم العاشر، كنت قد أصدرت اثنتين وعشرين رواية كبيرة سيكون من المستحيل قراءتها في مثل هذا الوقت القصير، وخصوصاً في هذه الفترة المأزومة التي نترقب منها أدنى خبر عن الشرق الأوسط.

- أزمة الخليج أهم بكثير من جثتي، أوافقك على هذا. غير أن الوقت الذي قضيته في دراسة الكرّاسات التي تلخّصني، كان

من المفيد لك أكثر لو خصَّصته لقراءة عشر صفحات من كتبي الاثنين والعشرين.

- سأقدم لك اعترافاً.

- لا داعي لذلك، فهمت، حاولت وتوقفت قبل أن تصل حتى الصفحة العاشرة. الأمر هكذا؟ خمّنت هذا منذ أن رأيتك، أعرف على الفور الناس الذين قرأوني: يُقرأ هذا فوراً في وجوههم، أما أنت، فلا يظهر عليك مظهر العناء، ولا الابتهاج ولا البدانة ولا النحافة ولا الانتشاء: تبدو سليماً معافى. لم تقرأ كتاباتي إذن أكثر مما قرأها زميلك الذي التقيت به البارحة، لهذا السبب أيضاً، ما زلت أحتفظ رغم كل شيء بآثار ود تجاهك، لا سيما أنك توقفت عن القراءة قبل الصفحة العاشرة: هذا ينم عن قوة في الطبع لم تتوفر لي أبداً. بالإضافة إلى ذلك، فإن محاولة الاعتراف - غير الضروري - تشرفك. كنت سأكرهك في الواقع، لو كنت قد قرأتني حقاً وبقيت كما أراك الآن. كنا نتحدث حول عملية الهضم، إذا كانت ذاكرتي لا تخونني.

- نعم، في الكاراميلا، بنحو أكثر دقة.

- حسناً، حين أنتهي من غدائي، أتجه نحو غرفة التدخين، إنها لحظة من لحظات الذروة خلال النهار. لذا، فأنا لا أسمح بمقابلاتكم إلا في الصباح، لأنني أدخن بعد الظهر حتى الخامسة مساء.

- لماذا حتى الخامسة مساء؟

- في الخامسة مساء تصل تلك الممرضة البليدة التي تعتقد أنه

من المفيد غسلي من قمة رأسي حتى أخمص قدمي. تلك فكرة أخرى لغرافلان، حمّام يومي، أتتصور ذلك؟ vanitas vanitatum sed omnia vanitas. لهذا، فإنني أنتقم لنفسي ما استطعت إلى ذلك سبيلاً، أحرص على أن أتعفن ما أمكن ذلك لأضايق هذه الأوزة البيضاء، أحشو غدائي بفصوص الثوم مسبباً اضطرابات في الدورة الدموية، ثم أدخن كتركي حتى موعد دخول منظّفتي.

وأطلق ضحكة كريهة.

- لا تقل لي بأنك تدخن كل هذه السجائر بهدف وحيد وهو خنق تلك التعيسة.

- سيكون ذلك سبباً كافياً، لكن الحقيقة هي أنني مشغوف بتدخين السيجار، وإذا لم أختر تلك الساعات للتدخين، فلن يكون هناك أي شيء ضار في هذا النشاط، أقول نشاط لأن التدخين يمثل بالنسبة لي انشغالاً كاملاً، لا أسمح خلاله بأي زيارة أو لهو.

- هذا مهم جداً، يا سيد طاش، لكن لا نبتعد عن الموضوع: ليس ثمة علاقة لسجائرك بعملية هضمك.

- أتعتقد ذلك؟ لست متأكداً، في النهاية إذا لم يكن هذا يهمك، فهل يهمك استحمامي؟

- لا، إلا إذا كنت تأكل الصابون أو تشرب مياه الغسل.

- أتعرف بأن هذه البغي تعرِّيني تماماً، تحك انتفاخاتي الدهنية، تدعك مؤخرتي الكبيرة؟ أنا متأكد بأنها تستمتع بذلك، بتمليح بدين أعزل، عار وأمرد، إن جميع هؤلاء الممرضات

مهووسات، لذا فهنّ يخترن هذه المهنة القذرة.

- سيد طاش، أعتقد أننا نتوه مجدداً.

- لا أوافقك على ذلك. فهذا المشهد اليومي رديء جداً، وهو يسبب لي اضطراباً في الهضم، أتتصور هذا، أن أكون وحيداً عارياً كحشرة في الماء، مهاناً، منتفخ شحماً بنحو فظيع أمام ذلك الكائن المغطى بالثياب، والذي يعرّيني كل يوم بسحنة تتظاهر بأنها مهنية لكي تخفي بأنها تبلل سروالها الداخلي، إذا كانت تلبس سروالاً، وحين تعود إلى المستشفى، وأنا على يقين بأنها تحكي لزميلاتها - العاهرات هنّ أيضاً - التفاصيل...

- سيد طاش أرجوك.

- هذا، يا عزيزي سيعلمك كيف تسجّل ما أقول. لو كنت تدوّن ملاحظات كأي صحفي شريف، فسيكون بوسعك ملاحظة سخافات الشيخوخة التي أحكيها لك، بالمقابل، أنت لن تتمكن بآلة تسجيلك من فصل الدرر التي أقولها عن الحماقات.

- وبعد ذهاب الممرضة.

- وبعد ذلك، ها أنت تتقدم بسرعة في عملك، بعد ذلك، تكون قد مرّت الساعة السادسة مساءً. تلبسني العاهرة البيجاما، مثل الأطفال الرُضَّع الذين يجمعون ويقمّطون قبل أن يمنحوا آخر رضاعة، في تلك الساعة أحس بأنني طفل حقيقي، إلى حد أنني أبدأ باللعب.

- تلعب؟ بماذا؟

- بأي شيء. أتنقل من مكان إلى مكان بكرسيي المتحرك،

أزلجه بنحو متعرج، أقذف بالسّهام الصغيرة، انظر إلى الحائط خلفك، سترى آثار السّهام، أو أمارس المتعة الكبرى، تمزيق الصفحات الرديئة في الكتب الكلاسيكية.

- ماذا؟

- نعم، أهذب رواية **أميرة كليف**[1] مثلاً: هي ذي رواية ممتازة لكنها طويلة جداً أفترض أنك لم تقرأها، لذا أنصحك بقراءة الصيغة المختصرة بجهودي الخاصة: إنها تحفة، لبّ كتاب.

- سيد طاش، ماذا ستقول إذا انتزعت من رواياتك بعد ثلاثة قرون، صفحات حكم عليها بأنها زائدة؟

- أتحداك أن تجد صفحة واحدة زائدة في كتبي.

- يمكن لمدام **لافاييت** أن تقول لك نفس الكلام.

- أنت لن تقارنني بهذه الطائشة.

- ولكن، أخيراً، سيد طاش.

- أتريد أن تعرف حلمي السري؟ إعدام بالحريق، إعدام جميل لأعمالي كلها. هذا يقطع حبل أفكارك أليس كذلك؟

- حسناً، وبعد تلك التسليات؟

- أنت مهووس بالطعام، في الواقع، فما إن أكلمك عن شيء آخر، حتى تعيدني إلى الطعام.

---

(1) «أميرة كليف» هي الرواية الأشهر للروائية الفرنسية مدام لافاييت (1634 - 1693).

- هذا لا يشكل هوساً بالنسبة لي أبداً، ولكننا بدأنا بهذا الموضوع ولا بد من متابعته حتى النهاية.

- هذا لا يشكل هوساً بالنسبة لك؟ أنت تخيّب ظني أيها الشاب، لنتكلم إذن عن الأكل، بما أنه لا يشكل هوساً بالنسبة لك. حين أكون قد هذّبت بعض الكتب، وأطلقت سهاماً صغيرة، وتزلجت متعرجاً بنحو مسلٍّ، ولعبت جيداً. حين تكون هذه الأنشطة التهذيبية قد أنستني فظاعات الحمام، أشعل التلفاز، على غرار الأطفال الصغار الذين يشاهدون برامجهم السخيفة قبل تناولهم الحساء أو المعكرونة الألفبائية. في تلك الساعة، وهذا مهم جداً، تكون هناك إعلانات لا نهاية لها، وخصوصاً إعلانات المواد الغذائية، فأتحول من قناة إلى قناة على نحو يجعلني أشكّل مسلسلاً إعلانياً هو الأطول في العالم. فمع القنوات الستة عشر الأوروبية يكون من الممكن جداً ومن خلال التجول بين القنوات بذكاء، أن نحصل على نصف ساعة من الإعلانات من دون توقف، إنها أوبرا رائعة، متعددة اللغات، الشمبو الهولندي، البسكويت الإيطالي، مساحيق الغسل البيولوجية الألمانية، الزبدة الفرنسية، إلخ. أتلذذ بمشاهدتها، وحين تصير البرامج بليدة أطفئ التلفاز، وبما أن شهيتي قد استثيرت بمئات الإعلانات التي شاهدتها، أبادر إلى الطعام. أنت مسرور، أليس كذلك؟ سيكون عليك أن ترى وجهك، حين أتظاهر بالابتعاد مجدداً عن الموضوع، اطمئن، ستحصل على السبق الصحفي (السكوب) الذي تنتظره، لكنني في الليل آكل طعاماً خفيفاً، أكتفي بأشياء

باردة، مثل كفتة الخنزير مفرومة، دهن مجمّد، شحم خنزير نيء، زيت علبة سردين - أنا لا أحب السردين كثيراً - ولكنه يعطر الزيت، فأنا أرمي السردين، وأترك العصارة، أشربها كما هي، ما بك؟

- لا شيء، تابع أرجوك.

- سحنتك ليست على ما يرام، أؤكد لك. ومع كل هذا أشرب شوربة مرقاً دسماً جداً أحضّره مسبقاً، أغلي لساعات جلد خنزير منتوف، وأرجله، وعصّ دجاج، ومخ عظم مع جزرة، وأضيف مغرفة من دهن خنزير ذائب، ثم أخرج الجزرة وأترك الشوربة تبرد طيلة أربع وعشرين ساعة. في الواقع أنا أحب احتساء الشوربة وهي باردة، فحين يجمد الشحم ويشكل غلافاً يجعل الشفتين لامعتين، ولكن لا تقلق، فأنا لا أبدّد شيئاً، لا تظن بأني ألقي باللحوم اللذيذة، فبعد الغليان المديد يكتسب اللحم من الدسم ما خسره في المرق، كم هو شهي عص الدجاج حين يكتسب دسمه الأصفر قواماً اسفنجياً... ما بك؟

- أنا، لا أدري، رهاب الأماكن المغلقة ربما، هل بالإمكان فتح النافذة؟

- فتح نافذة في 15 يناير، أنت لا تفكر؟ فهذا الأوكسجين سيقتلك؟ لا أعرف ما تحتاجه في حالتك.

- اسمح لي بأن أخرج للحظة.

- لا أبداً، ابقَ في الدفء، سأعد لك ألكسندرا بطريقتي، مخلوطة بزبدة ذائبة.

لدى سماع الصحفي هذه الكلمات تحولت سحنته الشاحبة إلى الخضرة، فولّى هارباً، وهو يحني جذعه، ويده على فمه.

دفع طاش عجلته بسرعة نحو النافذة المطلّة على الزقاق وشعر برضى عميق لرؤية المسكين وهو يقيء راكعاً على ركبتيه مهدوداً.

أطلق البدين من بين ذقونه الأربعة غمغمة، معبّراً عن انشراحه.

- حين يكون المرء ضعيف الطبع فعليه أن لا يأتي ليتبارى مع بريتكستا طاش.

توارى وراء الستارة السميكة وكان بإمكانه أن يستسلم لمتعة الرؤية دون أن يرى. رأى رجلين يخرجان من المقهى المقابل ويسرعان نحو زميلهما الذي أفرغ ما في بطنه وتمدد على الرصيف، وإلى جانبه مسجلته التي لم يغلقها: فسجلت بالتالي صوت تقيّوئه.

تمدد الصحفي فوق دكة في الحانة الصغيرة، كان يحاول أن يتمالك نفسه بطريقة ما، ويردد أحياناً وهو يوزع نظرات حانقة.

- لن آكل بعد اليوم... لن آكل بعد اليوم إطلاقاً.

قدّموا له ماءً دافئاً ليشربه، فتفحّص متشككاً. أراد الزملاء الاستماع إلى الشريط فرفض.

- ليس في حضوري، أرجوكم.

هتفوا لزوجة الضحية فجاءت وحملته في سيارتها، وحينما غادر تمكنوا أخيراً من تشغيل المسجلة، وأثارت أقوال الكاتب التقزز والضحك والحماس:

- هذا الرجل منجم ذهب، هذا ما أسميه تلقائية.

- هو حقير بنحو رائع.

- هوذا واحد على الأقل ينفلت من الإيديولوجية المكثفة.

- ومن الإيديولوجية الخفيفة.

- لديه طريقة في إسقاط الخصم.

- إنه قوي جداً، ولن أقول ذلك عن صديقنا، لقد وقع في كل الفخاخ حقاً.

- لا أريد أن أغتاب غائباً، ولكن ما الحاجة إلى أن تذهب إليه لتطرح أسئلة حول الأكل؟ أفهم عدم استسلام البدين له. إذا أتيحت لنا فرصة محاورة عبقري مثله، فلا ينبغي أن نكلمه عن الأكل.

كان الصحفيون سعداء لأنهم لم يكونوا أول ولا ثاني الداخلين. كانوا في قرارة أنفسهم يعرفون بأنهم لو كانوا في مكان التعيسَيْن لتناولوا المواضيع نفسها، الغبية بالتأكيد، لكن المحتومة. كانوا سعداء لأنه لم يكن عليهم القيام بهذه المهمة القذرة: لقد بقي لهم الدور الجميل وهم سيغتنمونه، الأمر الذي لم يكن يمنعهم من الاستمتاع قليلاً على حساب الضحيتين.

هكذا، ففي ذلك اليوم الرهيب الذي كان العالم برمّته يرتعد لفكرة الحرب الوشيكة في الخليج نجح عجوز نتن، مشلول، أعزل في تحويل اهتمام حفنة من كهنة الإعلام، بل كان هناك في ليلة الأرق هذه من بات صائماً ونام نوماً ثقيلاً ومرهِقاً للكبد. دون أن يخطر له فكرة واحدة حول أولئك الذين سيموتون في تلك الحرب.

استغلّ طاش الموارد القصوى غير المعروفة للتقزز، واستخدم الدسم بدل النابالم، والألكسندرا بدل السلاح الكيماوي. وفي تلك الليلة، فرك يديه كاستراتيجي سعيد.

الفصل الثالث

- بدأت الحرب إذن؟

- ليس بعد، سيد طاش.

- ستبدأ، رغم ذلك.

- لدى سماعك، يعتقد المرء بأنك تتمنى حدوثها.

- أنا أستفظع الوعود التي لا تُنفَّذ، عصابة الماجنين هذه وعدتنا بالحرب يوم 15 في منتصف الليل، ونحن في يوم 16 ولم يحدث شيء، هم يسخرون ممن؟ فملايين المشاهدين يترقّبون.

- هل أنت من أنصار هذه الحرب، سيد طاش؟

- حب الحرب. هذا شنيع، كيف يمكن أن نحب الحرب؟ أي سؤال مضحك ولا جدوى منه. أتعرف أنت أحداً يحب الحرب؟ لماذا لا تسألني هل آكل نابالم في الفطور؟ بما أنك أتيت من أجل هذا الموضوع.

- في ما يتعلق بموضوع تغذيتك، انتهينا منه.

- آه؟ لأنكم تتجسسون على بعضكم بعضاً، زيادة على هذا؟ تتركون زملاء تعساء من بينكم يقومون بالمهمة القذرة ثم تستمتعون بما يجري لهم، أليس كذلك؟ هذا جميل. أنت تتصور نفسك أكثر ذكاء لأنك تطرح أسئلة مبهرة من قبيل «هل أنت مع

الحرب؟» وأنا الذي سيكون علي أن أكون كاتباً عبقرياً يثير الإعجاب في العالم أجمع، وأن أحصل على جائزة نوبل للأدب، وكل هذا كي يأتي غُرّ مثلك يخزّني بأسئلة جوفاء تقريباً يمكن لأغبى الأغبياء أن يرد عليها بأجوبة مماثلة لأجوبتي.

- حسناً، أنت إذن لا تحب الحرب، لكنك تريد حدوثها؟

- في الظروف الحالية، هي ضرورة، فكل هؤلاء الجنود الصغار المغفلون منتعظون، ولا بد من إعطائهم فرصة للقذف، وإلا فستظهر عليهم دمامل، ويعودون إلى أمهاتهم باكين. إحباط الشباب، أمر سيئ.

- أنت تحب الشباب، سيد طاش.

- لديك موهبة طرح أسئلة ذكية وغير مسبوقة، نعم! تصور، أنا أعبد الشباب؟

- هذا جواب غير منتظر، فحسب علمي أتصور بأنه ليس بوسعك الإحساس بهم.

- «حسب علمي» من تظن نفسك؟

- في النهاية، حسبما أعلم عن شهرتك.

- ما الذي اشتهرت به؟

- في الواقع... من الصعب القول.

- نعم... رأفة بك، لن ألحّ عليك.

- إذن، فأنت تحب الشباب؟ ولكن لأي سبب؟

- أحب الشباب لأن فيهم كل ما أفتقده، ولهذا يستحقون الحنان والإعجاب.

- هذا جواب مثير للمشاعر، سيد طاش.

- هل تريد منديلاً؟

- لماذا تحاول تحويل النوازع النبيلة لقلبك إلى موضوع للسخرية؟

- النوازع النبيلة لقلبي؟ أين عثرت على تعابير حمارية كهذه؟

- آسف، يا سيدي. أنت الذي أوحيتها لي: ما قلته حول موضوع الشباب كان مؤثراً فعلاً.

- تعمق أكثر وسترى إن كان مؤثراً.

- لنتعمق إذن.

- أحب الشباب لأن فيهم كل ما أفتقده، هذا ما قلته، والحقيقة، أن الشباب يتمتعون بالجمال، وهم رشيقون، وحمقى، وأشرار.

- ...؟

- أليس كذلك؟ هذا جواب مثير، لكي أتكلم مثلك.

- أنت تمزح، على ما أفترض؟

- هل تبدو علي سحنة المازح؟ ثم، أين يكمن المزاح؟ هل يمكنك أن تنكر صفة واحدة من هذه الصفات؟

- لو قبلنا بأن هذه الصفات حقيقية، فهل تضع نفسك على النقيض منها؟

- ماذا؟ هل تجدني جميلاً، رشيقاً، أحمق، شريراً؟

- لست جميلاً، ولا رشيقاً، ولا أحمق...

- إنك تطمئنني.

- لكن بصدد الشر، فأنت شرير؟

- شرير، أنا شرير!

- قطعاً.

- شرير، أنت مريض، خلال ثلاث وثمانين سنة من حياتي لم ألتقِ قط بشخص بمثل طيبتي المتناهية، أنا لطيف على نحو فظيع، لطيف إلى حد أنني لو التقيت بنفسي، لتقيّأت..

- أنت لا تتكلم جاداً.

- هذا طفاح الكيل، اذكر لي شخصاً واحداً أفضل مني (هذا مستحيل) أما أكثر طيبة مني؟

- حسناً... أول الداخلين عليك.

- أول الداخلين؟ هو أنت إذن، إذا فهمت جيداً؟ أيها المهرج.

- أنا أو أي شخص آخر.

- لا تتحدث عن شخص آخر، لا تعرفه، تحدث عن نفسك، باسم من تتجرأ على الزعم هكذا بأنك أكثر طيبة مني؟

- باسم البديهيات الأشد وضوحاً.

- نعم، هذا ما كنت أعتقده ليس لديك أي حجة.

- على كل حال سيد طاش، هل تسمح بأن تكف عن الهذيان؟ لقد استمعت إلى حوار الصحفيين السابقين. ورغم أنني لا أعرف عنك إلا هذه العيّنات فإنه بوسعي أن أتمالك نفسي أمامك. هل يمكنك أن تنكر بأنك عذّبت بشدة هذين التعيسين؟

- أي لؤم هذا؟ إنهما مَنْ عذّباني بشدة.

- لعلمك إن كنت لا تعرف، كلاهما مريضان ككلبين منذ التقيا بك.

- Post hoc ergo propter hoc أليس كذلك؟ أنت تفترض علاقات سببية عجيبة كلياً، أيها الشاب، لقد سقط الأول مريضاً لأنه أفرط في شرب البورتو فيليب، لن تقول بأنني أنا الذي جعلته يشربه، آمل ذلك؟ وأما الثاني فقد دفعني، على مضض مني، لكي أحكي له عن أنواع طعامي. فإذا كان غير قادر على احتمال ذلك، فالخطأ ليس خطئي، أليس كذلك؟ سأضيف بأن هذين الشخصين تصرفا بغطرسة تجاهي، أوه، وتحمّلتهما بوداعة حمل في المذبح. لكنهما هما من عانيا من ذلك، ها أنت ترى، نحن نعود دائماً إلى الأناجيل: لقد قالها المسيح، الأشرار والحاقدون يسيئون في المقام الأول لأنفسهم. من هنا جاءت العذابات التي كابدها زميلاك.

- سيد طاش، أرجوك أن تجيب عن هذا السؤال بكل صدق: هل تعتبرني غبياً؟

- بالطبع.

- شكراً على صدقك.

- لا تشكرني، أنا لست قادراً على الكذب، إضافة إلى ذلك، لا أفهم لماذا تطرح عليّ سؤالاً وأنت تعرف الجواب: أنت شاب، ولم أخفِ عنك ما أفكر فيه تجاه الشباب.

- في هذا الصدد، ألا تجد بأنك لا ترى بعض الفروق؟ لا يمكن أن نضع كل الشباب في سلة واحدة.

- أوافقك القول، بعض الشباب يتمتعون بالجمال وليسوا رشيقين. أنت مثلاً، لا أعرف ما إذا كنت رشيقاً، ولكنك لست جميلاً.

- أشكرك، لا أحد من الشباب يتخلص من كونه شريراً وغبياً.

- لم أعرف سوى استثناء واحد: أنا.

- كيف كنت في سن العشرين؟

- مثلما أنا الآن، كنت ما أزال قادراً على المشي، وغير هذا لا أعرف بأي شيء تغيرت، كنت منذئذ أمرد، بديناً، زاهداً، رائعاً، طيباً جداً، قبيحاً، ذكياً للغاية، متوحّداً، وكنت أحب الأكل والتدخين.

- في المحصّلة، لم تعش فترة شباب؟

- كم أحب سماع حديثك. يميناً إنه قائمة لأحداث مبتذلة، أقبل القول: «نعم، لم أعش مرحلة الشباب» بالشرط الصريح التالي، أن توضح بدقة في مقالتك بأن التعبير لك، دون ذلك سيتصور الناس بأن بريتكستا طاش يستعمل مصطلحاً من روايات المحطات.

- سأقوم بذلك. أما الآن، إذا لم يكن لديك مانع، اشرح لي بماذا ترى نفسك طيباً، وإذا أمكن قدّم أمثلة مؤيدة.

- أحب «ما أمكن هذه» أنت لا تؤمن بطيبتي أليس كذلك؟

- «تؤمن» ليس هو الفعل المناسب، لنقل بالأحرى «تتصور».

- انظروا إلى هذا، حسناً أيها الشاب، تصور إذن ما كانت عليه حياتي: تضحية دامت ثلاثاً وثمانين سنة. وما تضحية المسيح

بالمقارنة مع تضحيتي هذه؟ ودام شغفي بذاتي أكثر من خمسين سنة. وسيحدث لي عما قريب تمجيد أشد فرادة وأكثر طولاً، وأعظم تميُّزاً، وربما أيضاً أشد إيلاماً: احتضار سيترك فوق جسدي ندوباً رائعة لداء Elzenvriverplatz. يلهمني السيد المسيح أرقَّ المشاعر. لكن ومع كل إرادته الخيّرة لم يتمكن من الموت بسرطان الغضروف.

- وإذن؟

- كيف، وإذن؟ أن تموت على الصليب ميتة عادية كسقوط المطر مثل أن تموت بمرض نادر. أتجد الأمر سيّان؟

- الموت. دائماً هو الموت.

- يا إلهي، أتدرك الحماقة التي سجّلتها مسجلتك الآن؟ وزملاؤك الذين سيسمعون هذا. يا صديقي المسكين. لا أحب أن أكون مكانك «الموت، دائماً هو الموت» أنا لطيف إلى حد أن أسمح لك بمسح هذا الكلام.

- ليس مهماً، سيد طاش: هذا بالضبط هو رأيي.

- أتعلم بأني بدأت أجدك مثيراً للإعجاب؟ كم هو عجيب انعدام الفطنة على هذا النحو. ينبغي أن نقلّك إلى قسم «الكلاب المسحوقة العظام» لتتعلم لغة الكلاب، وتسأل تلك الحيوانات البائسة المحتضرة ما إذا كانت تفضّل الموت بمرض نادر.

- سيد طاش. هل اتّفق لك أن وجّهت للآخرين شيئاً آخر غير الشتائم؟

- أنا لا أشتم أبداً. سيدي، أنا أشخّص في الحقيقة. أفترض

أنك لم تقرأ أي شيء لي على الإطلاق؟

- هذا خطأ.

- كيف؟ هذا ليس ممكناً، ليس لك هيئة ولا مظهر قارئ لطاش، هذه كذبة.

- إنها الحقيقة الخاصة. لم أقرأ إلا رواية واحدة من رواياتك، ولكنني قرأتها حتى النهاية وأعدت قراءتها وقد أثّرت بي.

- لا بد أنك تخلط هذه الرواية بأخرى.

- كيف يمكن خلط كتاب مثل **اغتصاب مجاني بين حربين**، بكتاب آخر؟ صدقني، تلك قراءة بلبلتني بعمق.

- بلبلتني؟ بلبلتني! كما لو أنني أكتب لبلبلة الناس! لو لم تقرأ هذا الكتاب قراءة مائلة، يا سيدي، مثلما فعلت على الأرجح. لو قرأته كما ينبغي أن تقرأ بأحشائك ما دام لك أحشاء، لتقيّأت.

- هناك بالفعل في أعمالك جمالية التقيؤ.

- جمالية التقيؤ! أنت ستبكيني.

- في النهاية، ولكي نعود إلى ما قلناه آنفاً، أؤكد بأنني لم أقرأ قط عملاً طافحاً بالشر مثل عملك.

- بالضبط. أنت تريد أدلة على طيبتي. هاك واحداً، واضحاً، كان سيلين[1] قد فهمه حين قال في مقدمات كتبه بأنه كتب أعماله

---

(1) روائي فرنسي (1894 - 1961) من عظماء النثر الفرنسي، من أعماله: «رحلة في أقاصي الليل».

الأشد تسميماً، بحنان يتعذر كبحه تجاه مغتابيه. ذلك هو الحب الحقيقي.

- هذه فظاظة. أليس كذلك؟

- سيلين، فظ؟ من مصلحتك مسح هذه الكلمة.

- ولكن. في النهاية، ذلك المشهد العنيف للغاية مع المرأة البكماء الصماء، يشعر القارئ بأنك كتبته بمتعة.

- بالتأكيد. أنت لا تتخيل متعة صبّ الماء في طاحونة النمامين.

- آه في هذه الحالة. ليست هذه طيبة يا سيد طاش، إنها خليط مظلم من المازوخية والبارانويا.

- طا.طا.طا. توقف عن استعمال كلمات تجهل معناها. بصدد الطيبة الخالصة ما هي برأيك، أيها الشاب، الكتب التي كتبت بطيبة خالصة؟ **كوخ العم توم؟ البؤساء؟** بالطبع لا. فهذه الكتب كتبت لتقرأ في الصالونات. لا صدقني، نادرة هي الكتب التي كتبت بطيبة خالصة، هذه الكتب جرى إبداعها وسط السفالة والعزلة. علماً بأنها حين تلقى في وجه العالم، يصير كاتبها أشد سفالة وأكثر عزلة. هذا طبيعي. الخاصية الأساسية للطيبة النزيهة هي أنها غير معترف بها، وغير مرئية، ولا يطالها الشك، لأن الخير الذي يفصح عن نفسه لا يكون أبداً مترفعاً. أترى جيداً بأنني طيب.

- هناك تناقض في ما قلته الآن، أنت تشرح لي بأن الطيبة الحقيقية تتوارى عن النظر. ثم تعلن على رؤوس الأشهاد بأنك طيب.

- أوه، يمكن أن أسمح لنفسي بذلك بحسب هواي. ففي كل الأحوال لن يصدقني أحد.

وانفجر الصحفي ضاحكاً.

- لديك حجج مثيرة للإعجاب. يا سيد طاش. فأنت تزعم على هذا النحو بأنك كرّست حياتك للكتابة بدافع من طيبتك الخالصة؟

- هناك أشياء أخرى أيضاً قمت بها بطيبة خالصة.

- مثل ماذا؟

- القائمة طويلة: العزوبية، والشراهة في الأكل. إلخ..

- اشرح لي؟

- طبعاً. لم تكن الطيبة دوماً دافعي الوحيد. عن العزوبية مثلاً: من المعلوم بأنني لا أعير أي اهتمام للجنس. ولكن، كان بإمكاني أن أتزوج رغم ذلك. ولن يكون ذلك إلا بغية التمتع بإزعاج زوجتي. حسناً، لا، فلأن طيبتي تدخلت هنا، لهذا لم أتزوج مراعاة لهذه التعيسة.

- فليكن، وماذا عن الشراهة؟

إنها البداهة ذاتها: أنا رسول البدانة، وحين سأموت، سأحمل فوق كتفي كل الكيلوغرامات الزائدة عن الإنسانية.

- تريد القول، رمزياً...

- حذار. لا تتفوه أبداً بكلمة «رمز» أمامي، إلا إذا تعلق الأمر بالكيمياء وهذا في مصلحتك.

- أنا آسف إن كنت غبياً وبليداً، لكنني، حقاً، لا أفهم.

- لا يهم، فأنت لست الوحيد الذي لا يفهم.

- ألا يمكنك شرح ما التبس عليّ؟

- أكره إضاعة وقتي.

- سيد طاش. مع إقراري بأنني غبي وبليد، أليس بوسعك تخيل وجود قارئ ينتظر مقالي. قارئ مستقبلي لهذا المقال. قارئ ذكي ومنفتح: يستحق أن يفهم؟ ولكن جوابك الأخير يحبطه؟

- مع تسليمي بأن هذا القارئ موجود. لكنه إذا كان حقاً ذكياً ومنفتحاً. فلن يكون في حاجة للشرح.

- لست متفقاً معك. فحتى الإنسان الذكي يكون في حاجة إلى الشرح حين يواجه فكراً جديداً وغير معروف.

- ماذا تعرف عن ذلك؟ أنت لم تكن أبداً ذكياً.

- بالتأكيد. لكنني أحاول بتواضع تخيّل ذلك.

- فتاي المسكين.

- هيا، قدِّم برهاناً على طيبتك المأثورة واشرح لي.

- أتريد أن أقول لك؟ إن الأشخاص الأذكياء والمنفتحين حقاً لا يطلبون مني هذه الشروح. إن ميزة الإنسان السوقي هي الرغبة في شرح كل شيء. بما في ذلك ما لا يمكن شرحه. إذن، لماذا أعطيك شروحاً لن يفهمها البليدون ولن يرغب بها الأشخاص المرهفو الذكاء؟

- كنت من قبل بليداً وغبياً، وعلي أن أضيف أيضاً سوقياً. إذا فهمت جيداً؟

- لا يمكن أن يخفى عنك أي شيء.

- إذا سمحت لنفسي. سيد طاش، ليس بهذه الطريقة يمكنك أن تكون ودوداً.

- ودود؟ أنا؟ لم يكن ينقص إلا هذا. ثم من أنت لكي تأتي وتعطيني دروساً في الأخلاق قبل موتي المجيد بأقل من شهرين؟ من تحسب نفسك؟ تبدأ جملتك بـ «إذا سمحت لنفسي» لكن ليس بإمكانك السماح لنفسك. هيا أخرج. أنت تضايقني.

- .....

- هيا هل أنت أصم؟

التحق الصحفي المرتبك بزملائه في المقهى المقابل. لم يكن يعرف هل تخلّص من الأمر بثمن باهظ أم لا. لم يقل الزملاء شيئاً بعد سماع الشريط. لكن ليس لطاش كانت توجَّه بسمتهم المتعجرفة بالتأكيد.

- إن هذا الشخص حالة خاصة. قالت الضحية الثالثة. افهموا أنتم، لا يعرف أحد أبداً كيف سيكون رد فعله، أحياناً يتولد لدى المرء انطباع بأن بمقدوره سماع كل شيء، من دون أن يغتاظ قط. بل إنه يستمتع بالتلميحات الوقحة لبعض الأسئلة. ثم فجأة ودون سابق إنذار، هو ذا ينفجر بسبب تفصيلات تافهة أو يلقي بك خارج الباب إن ساقك الحظ التعيس بأن تقدم له ملاحظة صغيرة ومشروعة.

- لا يحتاج العبقري إلى ملاحظات. اعترض زميل بلهجة من التعالي كأنه طاش نفسه.

- إذن، ماذا؟ هل كان علي أن أتركه يشتمني؟
- كان الأفضل أن لا تدفعه إلى هذه الشتائم.
- يا للخبيث. العالم كله لا يدفعه إلا إلى الشتائم.
- طاش المسكين! الجبار المسكين المنعزل.
- طاش مسكين؟ لقد طفح الكيل. بل نحن المساكين، نعم.
- ألا تدرك إذن بأننا نضايقه؟
- بلى. تمكنت من إدراك ذلك، لكن في النهاية، ينبغي إنجاز هذه المهنة. لا؟
- لماذا؟ قال باصق الحساء معتقداً بأنه ملهم.
- إذن. لماذا اخترت أن تكون صحفياً؟
- لأنه لم يكن بإمكاني أن أكون بريتكستا طاش.
- هل كان سيروقك أن تكون خصياً ضخماً مرموقاً؟

نعم. كان هذا سيروقه، ولم يكن وحده من يعتقد ذلك، فقد جُبل الجنس البشري على هذا، حتى إن البشر الأسوياء يكونون مستعدين للتضحية بشبابهم وأجسادهم، وأحبائهم، وأصدقائهم، وسعادتهم، وأكثر من هذا أيضاً، على مذبح الوهم الذي يسمى الخلود.

الفصل الرابع

- الحرب بدأت إذن؟
- آه... نعم بدأت، كانت الصواريخ الأولى...
- جيد.
- صحيح؟
- أنا لا أحب رؤية الشباب عاطلاً. هكذا، تمكن الصبية الصغار أخيراً، في يوم 17 يناير هذا، من الشروع في التسلية.
- إذا أمكن القول.
- ماذا، ألن يسليك هذا أنت؟
- بصراحة لا.
- أنت تجد التسلية ربما في ملاحقة الشيوخ البدينين بجهاز تسجيل؟
- ملاحقة؟ نحن لا نلاحقك، أنت نفسك من أذِنْت لنا بالمجيء.
- أبداً. هذا أيضاً أحد مقالب غرافلان. ذاك الكلب!
- عجباً، سيد طاش، لك كامل الحرية في قول لا لسكرتيرك، إنه رجل متفانٍ يحترم جميع رغباتك.
- أنت تتفوه بأي شيء، إنه يعذبني، ولا يستشيرني أبداً، تلك الممرضة مثلاً هو مَنْ...

- هيا، سيد طاش، هدئ من روعك، لنتابع حوارنا، كيف تفسر النجاح الباهر...

- هل تريد ألكسندرا؟

- لا، شكراً، كنت أقول النجاح الباهر لـ...

- انتظر، أنا أريد شرب قدح.

معترضة كيميائية

- هذه الحرب الجديدة خلقت لدي رغبة عارمة بألكسندرا، إنه مشروب احتفالي للغاية.

- حسناً، سيد طاش، كيف تفسر النجاح الباهر لأعمالك في كل بقاع العالم؟

- أنا لا أفسره.

- هيا، سبق لك أن فكرت في هذا وتخيلت إجابات.

- لا.

- لا؟ بعت ملايين النسخ، وصولاً حتى الصين ولم يجعلك هذا تفكر؟

- تبيع يومياً معامل السلاح آلاف الصواريخ عبر العالم وهذا أيضاً لا يجعلهم يفكرون.

- هذا ليس له أية علاقة بما نحن فيه.

- أتظن ذلك؟ على الرغم من أن التشابه صارخ. هذا التكديس للأسلحة مثلاً: يجري الحديث عن السباق نحو التسلح، ينبغي أن نقول أيضاً «السباق نحو الأدب». فهو استعراض للقوة مثله في ذلك مثل استعراض السلاح. كل شعب يستعرض كاتبه أو كتّابه، مثل المدافع. عاجلاً أم آجلاً سيشهروني أنا أيضاً كما يشهرون

السلاح، وسيتسلحون بجائزة نوبل التي حصلت عليها.

- إذا كنت تصور الأمر على هذه الشاكلة، فأنا متفق معك، لكن الحمد لله إن الأدب أقل ضرراً.

- ليس كتاباتي، فكتاباتي أشد ضرراً من الحرب.

- أنت لا تمدح نفسك الآن؟

- بل يجب أن أفعل ذلك ما دمت القارئ الوحيد الذي يمكنه أن يفهمني. نعم، إن كتبي أكثر ضرراً من أي حرب ما دامت تخلق الرغبة بالموت. في حين أن الحرب تخلق الرغبة بالحياة. بعد أن يقرأ لي الناس سيتعيّن عليهم أن ينتحروا.

- كيف تفسر أنهم لا يفعلون ذلك؟

- هذا في المقابل، أفسره بسهولة كبيرة: لأنه ما من أحد يقرأ كتبي. في الحقيقة، ها هنا يمكن، ربما، تفسير نجاحي الباهر. فإذا كنت مشهوراً يا عزيزي فلأنه ما من أحد يقرأ لي.

- أي تناقض هذا؟

- على العكس: لو حاول هؤلاء المساكين قراءة كتبي لكرهوني، فلكي ينتقموا للجهد الذي كلفتهم إياه فإنهم سيرمونني في سلة المهملات، بيد أنهم إن لم يقرؤوا لي شيئاً، وجدوني مريحاً، وظريفاً إذن وجديراً بالنجاح.

- هذا تفكير مدهش.

- لكن لا يمكن تفنيده. انظر، لنأخذ هوميروس[1]، هذا واحد

---

(1) شاعر يوناني. شكك البعض بوجوده، تُنسب إليه الأوديسا والإلياذة.

لم يكن مشهوراً أبداً كما هو اليوم. هل تعرف إذن كثيراً من القرّاء الحقيقيين **للإلياذة والأوديسا** الحقيقيتين؟ حفنة من الفلاسفة الصلعاء، ليس أكثر. لا يمكنك مع ذلك إطلاق وصف قراء على تلامذة المرحلة الثانوية الناعسين، الذين يرددون **هوميروس** فوق مقاعد المدرسة في حين أنهم لا يفكرون إلا في أخبار الموضة والإيدز. لهذا السبب الوجيه تحديداً يبقى **هوميروس** هو المرجع.

- لنفترض أن هذا صحيح، هل تجد هذا السبب وجيهاً؟ ألا يكون بالأحرى محزناً؟

- بل رائع، أنا أصرّ على ذلك، أليس مريحاً بالنسبة لكاتب حقيقي، نقي وعظيم ونافع مثلي أن يعرف بأنه ما من أحد يقرأ له، وما من أحد يدنّس بنظرته الحقيرة الجمال الذي خلقته داخل أعماقي وعزلتي السرية؟

- ألم يكن من الأسهل والأبسط أن لا تنشر أبداً، لكي تتفادى النظرة الحقيرة؟

- ذلك سهل جداً، لا. انظر، إن قمة التفنن هي أن تبيع ملايين النسخ وأن لا تُقرأ.

- من دون حساب أنك جنيت المال من ورائها.

- بكل تأكيد أنا أعشق المال كثيراً.

- ألأنت تحب المال؟

- نعم. المال يأسر الألباب، ورغم أني لم أجد له قط أي فائدة. لكنني أحب كثيراً النظر إليه، قطعة الخمسة فرنكات، مثلاً، جميلة كزهرة الربيع.

- هذا تشبيه لم يكن ليخطر لي أبداً.

- عادي، لأنك لم تحصل على جائزة نوبل.

- في الواقع، ألا تدحض جائزة نوبل نظريتك؟ ألا تخلق الافتراض، على الأقل، بأن لجنة التحكيم قرأت أعمالك؟

- لا شيء مؤكد كلياً. لكن في حالة ما كانت اللجنة قد قرأت لي، أتعتقد أن هذا يغيّر شيئاً في نظريتي؟ هناك الكثير من الناس يدفعون بالتظاهر إلى حد أنهم يقرؤون دون أن يقرؤوا، على غرار الرجال الضفادع، فهم يغوصون في الكتب دون أن يتبللوا بقطرة ماء واحدة.

- نعم، تحدثت عنهم في لقاء سابق.

- هؤلاء هم القراء الضفادع. إنهم يشكلون السواد الأعظم من القراء البشر. ومع ذلك فإنني لم أكتشف وجودهم إلا بعد مرور زمن طويل. كنت من السذاجة بحيث ظننت أن كل الناس يقرؤون مثلي. أنا أقرأ مثلما آكل: هذا لا يعني فقط بأنني بحاجة إلى القراءة لكنه يعني على الأخص أن القراءة تدخل في مركّباتي، وتعدلها أيضاً. لن نكون أنفسنا بالذات إذا أكلنا نقانق أو أكلنا كافيار. لن نكون أنفسنا بالذات إذا قرأنا **كانط**[1] (وقاني الله منه) أو قرأنا **كونو**[2]. وفي النهاية حينما أقول «نحن» فعليّ أن أقول

---

(1) عمانوئيل كانط، فيلسوف ألماني (1724 - 1804) مثالي، من أعماله: «نقد العقل الخالص».

(2) رايموند كونو (1903 - 1976) كاتب فرنسي يحب العلوم، حاول تقريب اللغة الأدبية من الكلام اليومي.

«أنا والآخرون» لأن غالبية الناس خرجوا من قراءة **بروست** أو **سيمونون**[1] في الحالة ذاتها التي دخلوا بها. دون أن يفقدوا ذرة مما كانوا عليه أو يكتسبوا ذرة إضافية. قرؤوا، وهذا كل شيء: وفي أحسن الأحوال هم يعرفون «بمَ يتعلق الأمر» لا تعتقد بأنني أغالي. كم من مرة سألت أناساً أذكياء «هل غيّركم هذا الكتاب؟» فإذا بهم ينظرون إليّ بعيون فارغة كأنهم يقولون «لماذا تريدنا أن نتغير؟».

- اسمح لي بالاندهاش، سيد طاش، لقد تحدثت للتو كمُدافع عن الكتب التي تحمل رسالة، وهذا لا يشبهك.

- إيه! أنت لست ذكياً بما يكفي، أليس كذلك؟ أنت تتصور إذن بأن الكتب المحمَّلة برسالة هي القادرة على تغيير الفرد؟ بينما هي الأقل قدرة على تغييره، إن الكتب التي تؤثر والتي تحدث تحوُّلاً هي الكتب الأخرى، كتب الرغبة، اللذة، كتب العبقرية وبالأخص كتب الجمال: لنأخذ كتاباً عظيماً من كتب الجمال «**رحلة في أقاصي الليل**»، كيف لا تصبح شخصاً آخر بعد قراءته؟ إن غالبية القراء يجتازون هذه العقبة دون مصاعب. وهم يقولون لك بعد ذلك: «آه، نعم، **سيلين**، إنه رائع» ليعودوا بعد ذلك إلى حالهم. بالطبع إن **سيلين** هو حالة قصوى، لكنني لن أستطيع أن أتحدث عن الآخرين أيضاً. لن يظل المرء أبداً هو نفسه بعد قراءة

---

(1) جورج سيمونون (1903 - 1989) كاتب بلجيكي فرنكوفوني. كتب روايات بوليسية.

كتاب بسيط جداً **ليومالي**. إنه يغيرك. نحن لم نعد ننظر إلى الفتيات اللواتي يرتدين المعاطف الواقية من المطر مثلما كنا ننظر إليهنَّ قبل قراءة **ليومالي**[1]. آه، ولكن هذا في غاية الأهمية! تغيير النظرة: ذلك هو عملنا الجبار.

- ألا تعتقد بأن كل إنسان يغير نظرته بوعي أو بدون وعي بعد انتهائه من قراءة كتاب؟

- أوه، لا! وحدهم صفوة القراء قادرون على ذلك. أما الآخرون فيواصلون رؤية الأشياء بسطحيتهم الأصلية. كما أن الأمر يتعلق هنا بالقراء الذين هم من طينة نادرة، أما غالبية الناس فهم لا يقرؤون. هناك قول رائع في هذا الصدد لمثقف نسيت اسمه: «في الحقيقة، الناس لا يقرؤون أو هم يقرؤون ولا يفهمون أو يفهمون وينسون» هذا ما يلخّص الوضع جيداً، ألا ترى هذا؟

- في هذه الحالة أليس كارثياً أن يكون المرء كاتباً؟

- إذا كان هناك ما هو كارثي، فمن المؤكد أنه لا يأتي من هنا، إنها لنعمة أن يكون الكاتب مقروء، فمن الممكن حينئذ أن يكون كل شيء مباحاً له.

- لكن في النهاية كان ينبغي أن يقرأك الناس في البداية وإلا فما كنت لتغدو مشهوراً.

---

(1) ليومالي (1909 - 1996) كاتب فرنسي. اشتهر برواياته البوليسية وبطلها المحقق نيستور بورما.

- في البداية، ربما، ولكن قليلاً.

- أعود إذن إلى سؤال البداية. لماذا هذا النجاح الباهر؟ بماذا تجيب هذه البداية على انتظار القارئ؟

- لا أعرف، كان ذلك في سنوات الثلاثينات، لم يكن هناك تلفاز. كان الناس بحاجة إلى أن يشغلوا أنفسهم.

- نعم، ولكن لماذا أنت وليس كاتباً آخر؟

- في الواقع، بدأ نجاحي الكبير بعد الحرب. وهذا أمر مبهج، لأني لم أشارك قط في تلك المهزلة. كنت وقتها شبه عاجز. قبل عشر سنوات من ذلك تم إعفائي من الجندية بسبب السُّمنة. وفي عام 45 بدأت الكفارة الكبرى. بارتباك أو من دون ارتباك شعر الناس بأنهم قاموا بأشياء يستحقون أن يعاقبوا أنفسهم عليها، فعثروا على رواياتي التي كانت تصرخ كلعنات، وتطفح بالأقذار! فقرروا أن تكون عقاباً لهم بمستوى حقارتهم.

- هل كانت كذلك؟

- يمكن أن تكون كذلك - كما يمكن أن تكون شيئاً آخر. لكن هوذا vox populi vox dei . ثم توقفوا عن قراءتي. مثل **سيلين**. من المرجح أن **سيلين** هو أحد الكتّاب الأقل مقروئية. الفرق بيننا هو أنهم لا يقرؤونني أنا لأسباب معقولة. أما هو فلا يقرؤونه لأسباب خبيثة.

- أنت تتحدث كثيراً عن **سيلين**؟

- أعشق الأدب، سيدي، أهذا يدهشك؟

- أنت لا تتقّح أدب **سيلين**، كما أفترض؟

- لا بل هو من لا يكف عن تنقيح أدبي.

- هل قابلته؟

- لا، فعلت ما هو أفضل: قرأته.

- وهو هل قرأك؟

- بالتأكيد، شعرت دائماً بذلك وأنا أقرأ له.

- أتكون قد أثّرت في سيلين؟

- أقل مما أثر هو فيّ على أي حال.

- من هم الآخرون الذين أثّرت فيهم؟

- لا أحد، اسمع، بما أنه لا أحد قرأني. فإنني بفضل سيلين كنت قد قُرئت لمرة واحدة - قُرِئْت حقيقة - رغم كل هذا.

- أترى، ها أنت ذا ترغب بأن تُقرأ.

- من طرفه، من طرفه فقط. أما الآخرون فلا آبه لهم.

- هل التقيت كتّاباً آخرين؟

- لا، لم ألتقِ بأحد ولا أحد جاء للقائي. أعرف القليل من الناس، غرافلين بطبيعة الحال والجزار، وبائع القشدة، والبقّال وبائع السجائر. هذا كل شيء كما أعتقد. آه نعم، هناك أيضاً تلك الممرضة المومس ثم الصحفيين. أنا لا أحب أن ألتقي بالناس. وإذا كنت أعيش وحيداً فليس حباً بالعزلة بل كراهية لجنس البشر، يمكن أن تكتب في جريدتك بأنني كاره قذر للبشر.

- لماذا تكره البشر؟

- أفترض بأنك لم تقرأ «الناس القذرون».

- لا.

- بكل تأكيد أنت لم تقرأه. ولو كنت قرأته لكنت عرفت السبب. هناك ألف سبب لكره الناس، أهمها بالنسبة لي هو سوء نيتهم الذي لا سبيل إلى إصلاحه على الإطلاق. إن سوء النية هذا لم يكن قط ممجّداً مثلما هو ممجّد اليوم، لقد عشت حُقَباً كثيرة غير أنه بوسعي أن أؤكد لك بأنني لم أكره حقبة مثلما كرهت هذه الحقبة. حقبة سوء النية المتفشي على نطاق واسع. سوء النية أسوأ من الخيانة، ومن النفاق ومن الغدر. فإذا كانت نيتك سيئة فأنت تكذب أولاً على نفسك. ليس من أجل حل معضلات محتملة للضمير. لكن من أجل إرضاء الذات بكلمات جميلة مثل «نقاء» أو «كرامة» فضلاً عن الكذب على الآخرين. لكن ليس أكاذيب نزيهة ومؤذية. لا : أكاذيب مزيّفة، على غرار تضخيم الأرداف. يصفعونك بها مشفوعة بابتسامة كما لو أنها ستبعث في نفسك السعادة.

- اضرب لي مثلاً؟

- حسناً، الوضع النسائي الراهن.

- كيف؟ هل أنت من المُدافِعين عن المرأة؟

- أنا مدافع عن المرأة؟ أنا أكره النساء أكثر مما أكره الرجال.

- لماذا؟

- لألف سبب. أولاً، لأنهن قبيحات. هل رأيت أبشع من المرأة؟ ما رأيك بأن يكون لك ثديان وأرداف وأعفيك من الباقي؟ ثم إنني أكره النساء مثلما أكره جميع الضحايا. فالضحايا جنس مدنّس للغاية. وإذا قضينا نهائياً على هذا الجنس فربما سننعم أخيراً بالسلام. وربما سيتحقق للضحايا في النهاية ما

يرغبون به. أعني الاستشهاد. النساء ضحايا خبيثة بنحو فريد، بما أنهن قبل كل شيء ضحايا أنفسهن، وضحايا نساء أخريات. لو أردت أن تعرف حثالة المشاعر الإنسانية عليك بالتركيز على الأحاسيس التي تضمرها النساء بعضهن تجاه بعض. سترتعش هلعاً أمام كمّ النفاق. والغيرة، والخبث، والانحطاط. فأنت لن ترى على الإطلاق امرأتين تتعاركان وتتبادلان اللكمات، أو ضربات خنجر، أو حتى تتراشقان بشتائم مقذعة. إن الانتصار لديهن انتصار بتسديد الضربات تحت الحزام، أو جُمَل صغيرة، بذيئة تلحق الأذى بنحو أسوأ من ضربة مباشرة على الفك. ستقول لي بأن هذا ليس جديداً، وبأن عالم النساء هكذا منذ آدم وحواء، وأنا أقول بأن مصير المرأة لم يكن يوماً أسوأ مما هو عليه الآن. بسبب خطيئتهن. نحن متفقان تماماً. لكن ما الذي يغير هذا؟ لقد أصبح الوضع النسائي مسرحاً لسوء النيات الأشد إثارة للتقزّز.

- أنت لم تفسِّر شيئاً بعد.

- لنأخذ الوضع كما كان من قبل، كانت المرأة أدنى من الرجل - هذا بديهي - يكفي أن ترى كم هي قبيحة. في الماضي لم يكن سوء النية موجوداً: لم يكونوا يخفون عنها دونيتها إزاء الرجل، وكانت تُعامَل على هذا الأساس. أما الآن فالمرأة ما تزال أدنى من الرجل - وما تزال قبيحة، ولكن يقال لها بأنها ندّ له: كم هي غبية، لقد صدَّقَت هذا بالطبع، رغم أنها ما تزال تُعامَل على أنها أدنى منه: ليس تفاوت الرواتب إلا دليلاً بسيطاً. والدلائل الأخرى أشد خطورة. فالنساء دوماً في المؤخرة وفي

جميع الميادين - بدءاً بميدان الإغراء - وليس في هذا ما يثير الدهشة نظراً لقبحهن وقلة عقلهن وخصوصاً شراستهن المقيتة التي تبرز في جميع المناسبات. تأمَّل إذن سوء نية النظام الحالي: إيهام جارية قبيحة... بليدة خبيثة ودون أي سحر بأن لها نفس حظوظ سيدها في حين أنها لا تملك ربع هذه الحظوظ. أنا أجد هذا مقززاً. ولو كنت امرأة لقرفت منه.

- أنت تتصور ذلك! آمل أن يكون بإمكاني عدم مشاطرتك هذا الرأي؟

- «أتصور» ليس هذا هو الفعل الملائم. أنا لا أتصور. هذا يصدمني، ولكن باسم أي سوء نية أمكنك معارضتي.

- باسم ذوقي، في البداية، أنا لا أجد النساء قبيحات.

- يا صديقي البائس إن لك ذوق الكلاب.

- ثدي المرأة، كم هو جميل.

- أنت لا تدري ما تقول. إن هذه النتوءات الأنثوية التي تظهر على صفحات المجلات المصقولة تشارف اللامعقول. ما قولك في نتوءات الإناث الحقيقيات أولئك اللواتي يجرؤونَ على إبرازها وهنّ السواد الأعظم؟ أف...

- هذا ذوقك. وأنا أستطيع مشاطرتك إياه.

- نعم يمكننا أن نجد النقانق التي تباع عند الجزار جميلة. لا شيء ممنوع.

- هذا لا علاقة له بالأمر.

- النساء، إنهن لحم نتن، يقال أحياناً عن المرأة القبيحة قبحاً

شديداً بأنها نقانق. والحقيقة أن كل النساء نقانق.

- اسمح لي إذن أن أسألك، ماذا تكون أنت؟

- كتلة من شحم الخنزير، أليس هذا واضحاً للنظر؟

- ولكنك في المقابل تجد الرجال وسيمين؟

- لم أقل هذا. للرجال أجساد أقل قبحاً من أجساد النساء لكنها ليست أجساداً جميلة، مع ذلك.

- لا أحد جميل إذن؟

- بلى، بعض الأطفال جميلون جداً. ولكن هذا لا يدوم للأسف.

- هل تعتبر الطفولة إذن سناً مبارَكاً؟

- هل سمعتني أقول الآن «الطفولة سن عمري مبارك».

- هذه فكرة عامة لكنها صحيحة، أليس كذلك؟

- بلى، إنها صحيحة، يا حيوان، لكن هل من الضروري قولها؟ فالجميع يعرفونها.

- الواقع يا سيد طاش، أنت شخص يائس.

- هل اكتشفت هذا الآن؟ استرح أيها الشاب، إن نبوغك الكبير سيستنفد قواك.

- ما هي مبررات يأسك؟

- كل شيء. ليس العالم وحده قبيحاً، بل الحياة أيضاً، إن سوء الظن اليوم يقوم على الزعيق بالمقلوب. لا، ولكنكم تسمعونهم يثغون بصوت جماعي: «الحياة جميييلة!» «نحن نحب الحياة!» مثل هذه السخافات تجعلني أفقد صوابي.

- ربما تكون هذه السخافات صادقة.

- أعتقد ذلك أيضاً، وهذا هو الأخطر. فهو يثبت بأن سوء النية فعّال، وأن الناس يبتلعون هذه الترهات. هكذا تكون لهم حيوات من براز، ومِهن من براز. يعيشون في أماكن فظيعة برفقة أشخاص يثيرون الفزع ويدفعون بالنذالة إلى حد تسمية ذلك سعادة.

- لكن هذا أفضل بالنسبة إليهم، إذا كانوا سعداء على هذا النحو!

- هذا أفضل لهم كما تقول.

- وأنت سيد طاش ما هي سعادتك؟

- لا شيء، أعيش بسلام - الأمر هكذا - في النهاية كنت أعيش بسلام.

- ألم تكن قط سعيداً؟

صمت

- هل أفهم أنك كنت سعيداً؟... هل أفهم أنك لم تكن سعيداً؟

- اخرس، أنا أفكّر، لا، لم أكن قط سعيداً أبداً.

- هذا مريع.

- أتريد منديلاً؟

- حتى خلال طفولتك؟

- لم أكن طفلاً أبداً.

- ماذا تريد أن تقول؟

- هذا صحيح تماماً.

- ولكنك كنت صغيراً.

- صغير، نعم، لكن ليس طفلاً، كنت إذاك بريتكستا طاش.

- صحيح أننا لا نعرف شيئاً عن طفولتك، مسيرة حياتك تبدأ عند بلوغك سنّ الرشد دائماً.

- هذا طبيعي، لأني لم أعش طفولة.

- كان لك والدان مع ذلك.

- أنت تراكم حدوساً عبقرية أيها الشاب.

- ماذا كان يعمل أبواك؟

- لا شيء.

- كيف هذا؟ أكانوا من الأثرياء، أصحاب الإيرادات؟ هل هناك ورثة آخرون غيرك؟

- هل مصلحة الضرائب هي التي بعثتك؟

- لا، كنت أريد فقط أن أعرف ما إذا...

- إذن لا تحشر أنفك في شؤون غيرك.

- أن يكون المرء صحفياً، يا سيد طاش، يعني أن يحشر أنفه في شؤون الآخرين.

- بدّل مهنتك إذن.

- هذا غير وارد، فأنا أعشق هذه المهنة.

- أنت مسكين يا ولدي.

- سأطرح سؤالي بطريقة أخرى: حدثني عن الحقبة الأكثر سعادة في حياتك؟

صمت

- هل عليّ أن أطرح السؤال بطريقة أخرى؟

- هل تعتبرني أبله أو ماذا؟ ما اللعبة التي تلعبها؟ أيتها المركيزة الحسناء عيونك الجميلة تجعلني أموت حباً، إلخ.. أهذا ما تريده؟

- هدئ من روعك أحاول فقط القيام بعملي.

- وأنا أيضاً أحاول فعل الشيء نفسه.

- بالنسبة لك إذن الكاتب شخص تقوم مهمته على عدم الإجابة عن الأسئلة؟

- هوذا؟

- و**سارتر**؟

- ماذا، **سارتر**؟

- هذا كاتب كان يجيب على الأسئلة. لا؟

- إذن؟

- هذا يناقض تعريفك للكاتب.

- لا بتاتاً: على العكس، هذا يعززها.

- تريد القول بأن **سارتر** لم يكن كاتباً.

- ألا تعرف هذا؟

- ولكنه في النهاية كان يكتب بنحو جيد جداً.

- بعض الصحفيين يكتبون بنحو جيد أيضاً، ولكن لا يكفي أن يكون لديك قلم جيد لكي تكون كاتباً.

- آه، لا. وماذا يلزم أيضاً؟

- الكثير من الأشياء. في البداية، يلزم أن يكون للكاتب

خصيتين. والخصيتان اللتان أتحدث عنهما لا علاقة لهما بالجنسين. والدليل أن بعض النساء لديهن خصيتان. أوه، هنّ قليلات جداً. لكنهنّ موجودات: أفكر في **باتريسيا هايسميت**.

- من المثير للدهشة أن يحب كاتب مثلك أعمال **باتريسيا هايسميت**.

- لماذا؟ ليس هناك ما يثير الدهشة أيها التافه، هي ذي واحدة كان عليها أن تكره الناس مثلي، وخاصة النساء. يدرك المرء بأنها لا تكتب لتُستقبَل في الصالونات.

- **وسارتر**، هل كان يكتب ليُستقبَل في الصالونات؟

- وكيف؟ أنا لم ألتقِ يوماً بهذا الرجل، لكن من خلال قراءته فهمت كم كان يحب الصالونات؟

- يصعب تقبّل ذلك من شخص يساري.

- وإذن؟ أتظن أن اليساريين لا يعشقون الصالونات؟ أنا أظن أنهم على العكس، هم يعشقونها أكثر من أي شخص آخر. من الطبيعي بالإضافة إلى ذلك: أتمنى لو كنت لو عشت عاملاً طوال حياتي، فسأحلم طويلاً بالصالونات.

- أنت تبسّط الأمور بنحو رائع: ليس جميع اليساريين عمالاً. فبعضهم ينتمون إلى عائلات عريقة.

- حقاً؟ هؤلاء لا عذر لهم، إذن.

- هل أنت مبدئياً معادياً للشيوعية؟

- هل أنت قاذف قبل الأوان سيدي الصحفي؟ لكن هذا في النهاية لا علاقة له.

- أنا أشاطرك الرأي فعلاً لنرجع إذن إلى الخصيتين. فهما العضو الأكثر أهمية لدى الكاتب. فمن دون خصيتين يسخّر الكاتب قلمه في خدمة النوايا السيئة. ولكي أعطيك مثالاً. خذ كاتباً له قلم فذ، وزوّده بما يلزم للكتابة. إضافة إلى خصيتين، قويتين فسيعطيك روايات «موت بالتقسيط»[1]. ومن دونهما سيعطيك رواية **«الغثيان»**[2].

- ألا ترى بأنك تبسّط الأمور بعض الشيء؟

- أنت، أنت الصحفي تقول لي هذا؟ أنا الذي حاولت بكل طيبة أن أضع نفسي في مستواك.

- أنا لا أطلب منك الكثير، ما أريده هو تعريف مختصر ودقيق لما تسميه «خصيتان».

- لماذا؟ لا تقل لي بأنك تحاول كتابة كراس مبتذل عن حياتي.

- ولكن لا. أرغب فقط في إجراء محاورة واضحة قليلاً معك.

- نعم، هذا ما كنت أخشاه.

- هيا سيد طاش، بسّط لي المهمة لمرة واحدة على الأقل.

- اِعلم بأن لدي هلعاً من التبسيطات أيها الشاب. إذن فحين تطلب مني بالأحرى أن أبسّط نفسي فلا تنتظر مني أن أكون متحمساً.

---

(1) رواية لسيلين.

(2) رواية لسارتر.

- لكني لا أطلب منك تبسيط نفسك. هيا! أنا أطلب منك فقط تعريفاً صغيراً لما تسميه «خصيتان».

- يكفي، يكفي، فلتكف عن البكاء. ماذا يصيبكم معشر الصحفيين؟ أنتم جميعاً مرهفو الإحساس.

- أنا مصغٍ إليك.

- حسناً، الخصيتان هما طاقة مقاومة فرد لسوء النية المحيط به. إنها مسألة علمية؟ أليس كذلك؟

- تابع.

- هذا يعني بأنه لا أحد تقريباً يملك هاتين الخصيتين. أما بالنسبة لعدد الناس الذين يمتلكون قلماً جيداً وهاتين الخصيتين في آن معاً فهو ضئيل جداً. لهذا فإن هناك القليل من الكتّاب على سطح الأرض. لا سيما أن هناك مزايا أخرى مطلوبة أيضاً.

- ما هي؟

- ينبغي توفر قضيب.

- بعد الخصيتين، القضيب: من المنطقي إذن تعريف القضيب؟

- القضيب هو القدرة على الإبداع. نادرون هم القادرون على أن يبدعوا حقاً. أما الأغلبية فيكتفون بالنقل عمَّن سبقهم بموهبة متفاوتة. وهؤلاء السابقون هم غالباً ناقلون أيضاً. قد يحدث أن يكون هناك قلم جيد يملك قضيباً ولكن من دون خصيتين. **فيكتور هيغو** مثلاً.

- وأنت؟

- من المحتمل أن لدي سيماء خصي، لكن لدي قضيب كبير.

- ماذا عن سيلين؟

- آه، سيلين يمتلك كل شيء: لديه قلم عبقري، وخصيتان ضخمتان وقضيب ضخم والباقي...

- والباقي؟ ماذا يلزم أيضاً؟ شرج؟

- على الأخص، لا. القارئ هو من ينبغي عليه امتلاك شرج ليسهل امتلاكه وليس الكاتب. لا، ما يلزم أيضاً إنما هو الشفاه.

- لا أجرؤ على سؤالك عن أي شفاه، تتحدث.

- لكنك شخص عفن، صدقني!. أتحدث عن الشفاه التي تستعمل لإغلاق الفم، مفهوم؟ أيها المخلوق القذر!

- حسناً، وما تعريف الشفاه؟

- الشفاه تقوم بدورين اثنين. فهي تجعل من الكلام في البداية فعلاً حسياً. هل سبق لك أن تصورت الكلام بدون شفاه؟ سيكون هنا شيئاً بارداً ببلاهة، جفافاً خالصاً كأقوال كاتب العدل. لكن الدور الثاني هو الأكثر أهمية: فالشفاه تستعمل لإغلاق الفم على ما لا ينبغي أن يقال. واليد لها شفاهها أيضاً. تلك التي تمنعها من كتابة ما لا ينبغي أن يُكتَب. هذا ضروري إلى أبعد حد، إن كتّاباً مسلّحون بالموهبة وبخصيتين وقضيب فشلوا في كتاباتهم لأنهم قالوا ما لا ينبغي أن يقال.

- يدهشني هذا الكلام حينما يصدر عنك: أنت لست من النوع الذي يمارس الرقابة الذاتية.

- من الذي حدثك عن الرقابة الذاتية؟ الأشياء التي لا يجوز

قولها ليست بالضرورة أشياء قذرة، بل على العكس، علينا دائماً أن نحكي عن القذارة التي تعشش فينا: هذا صحي، هذا مفرح، هذا مقوي، لا، الأشياء التي ينبغي أن لا تقال هي من طراز آخر. تتوقع مني أن أشرح ذلك، ما دام هذا ينبغي أن لا يقال.

- ها أنا ذا أتقدم.

- ألم أنبهك قبل قليل بأن مهنتي ترتكز على عدم الإجابة على الأسئلة. فلتغير مهنتك يا عجوزي.

- عدم الإجابة على الأسئلة هو أيضاً جزء من دور الشفاه، أليس كذلك؟

- ليس فقط الشفاه، بل والخصيتان أيضاً، ينبغي امتلاك خصيتين بغية عدم الإجابة على بعض الأسئلة؟

- قلم، وخصيتان وقضيب وشفاه أهذا كل شيء؟

- لا، يلزم أيضاً أُذن ويد.

- الأذن للسمع؟

- هذا أمر مفهوم، أنت نابغة أيها الشاب. الحقيقة أن الأُذُن هي علبة رنين للشفاه، هي الصراخ الداخلي. كان **فلوبير**[1] متظرفاً بصراخه، لكن هل كان يتصور حقاً بأننا سنصدقه؟ كان يعرف بأن من غير المُجدي الصراخ بالكلمات. الكلمات تصرخ وحدها يكفي أن تصغي إليها.

- واليد؟

---

(1) فلوبير (1821 - 1880) روائي فرنسي، اشتهر برواية

- اليد للاستمتاع، هذا مهم للغاية. إذا لم يستمتع الكاتب فعليه إذن التوقف في الحال. أن تكتب دون أن تستمتع، هو أمر لا أخلاقي. الكتابة تحمل في داخلها بذور اللاأخلاقية، المتعة، إن العذر الوحيد للكاتب هو استمتاعه. والكاتب الذي لا يستمتع يكون فيه شيء شبيه بقذارة وغد يغتصب فتاة صغيرة دون أن يستمتع. يغتصب من أجل الاغتصاب. لإلحاق الأذى مجاناً.

- لا وجه للمقارنة، الكتابة ليست ضارة إلى هذا الحد.

- أنت لا تعرف ما تقول بكل تأكيد. بما أنك لم تقرأ لي، فمن البديهي أنك لن تستطيع أن تعرف. الكتابة تصنع الخراء على كل المستويات. فكر بالأشجار التي تُقطع من أجل الورق، بالأماكن التي ينبغي توفيرها من أجل تخزين الكتب، بالمال الذي يكلفه نشرها، بالمال الذي سيكلف القراء، بالملل الذي سيشعر به هؤلاء وهم يقرؤون. بشعور البؤساء التعساء، الذين سيشترون الكتب ولا يجدون الشجاعة لقراءتها. بحزن الظرفاء، الأغبياء الذين يقرؤونها دون فهمها. أخيراً على الأخص بغرور الحوارات التي ستعقب قراءتها أو عدم قراءتها وأكتفي بهذا، إذن أنت لن تقول لي بأن الكتابة ليست ضارة.

- لكن في النهاية، لا يمكنك أن تستثني كلياً احتمال العثور على قارئ أو اثنين يفهمونك فعلاً. ولو في بعض الأحيان. ومضات التواطؤ العميقة مع بعض الأفراد تجعل من القراءة فعلاً مباركاً.

- أنت فقدت صوابك. لا أدري إذا كان هؤلاء الأفراد

موجودين لكنهم إذا وجدوا، فإنهم هم الذين سيصابوا بأعظم الأذى من كتاباتي. عمّ تعتقدني أتكلم في كتاباتي؟ هل تتصور بأنني أتحدث عن طيبة الناس وعن سعادة الحياة؟ من أين أتيت بفكرة أن فهمي يجلب السعادة؟ على العكس.

- التواطؤ حتى في مشاعر اليأس، أليس هذا لطفياً؟

- أنت تجد هذا لطيفاً، أن تعرف بأنك يائس مثل جارك؟ ولكنني أجد هذا محزناً أكثر بكثير.

- في هذه الحالة، لِمَ الكتابة؟ السعي إلى التواصل؟

- انتبه؟ لا تخلط الأشياء. الكتابة ليست سعياً إلى التواصل. سألتني لماذا أكتب، وأجبتك بكل دقة وبنحو حصري تماماً: أكتب من أجل المتعة، وبتعبير آخر، إذا لم تكن هناك متعة فلا بد من التوقف. ما يحدث هو أن الكتابة تجعلني أستمتع: في النهاية، كانت تجعلني أستمتع حتى الموت لا تسألني لماذا؟ ليس لدي أدنى فكرة. ثم إن كل النظريات التي أرادت تفسير المتعة كانت واهية وبلهاء. ذات يوم قال لي رجل جاد للغاية إذا كنا نستمتع بممارسة الحب فلأننا نخلق الحياة. هل تفهم؟ كما لو كان من الممكن وجود متعة في خلق شيء حزين وقبيح كالحياة! ثم إن هذا يفترض أن المرأة حين تتناول حبوب منع الحمل لا تعود تستمتع لأنها لا تعود تخلق الحياة. لكن هذا الشخص كان يؤمن بنظريته! باختصار لا تطلب مني أن أفسر لك متعة الكتابة: إنها واقع. وهذا كل شيء.

- ماذا تفعل اليد في هذه المتعة؟

- اليد هي مركز متعة الكتابة. وهي ليست وحدها، الكتابة تخلق المتعة أيضاً داخل البطن، وفي العضو الجنسي، وفي الجبين، وفي الفكين. غير أن المتعة الأشد خصوصية تتموضع في اليد التي تكتب. هذا شيء يصعب تفسيره، فحين تخلق ما ينبغي خلقه ترتعش اليد من اللذة. وتغدو عضواً عبقرياً. كم مرة أحسست وأنا أكتب بانطباع غريب بأن يدي هي التي تقود وأنها تنزلق وحدها دون أن تطلب من الدماغ رأيه. آه، أعرف أن لا أحد من علماء التشريح يقبل شيئاً كهذا. ومع ذلك فهذا هو ما نحسه غالباً جداً. تحس اليد إذن بنشوة تشبه دون شك نشوة الفرس الجامح، نشوة السجين الهارب من السجن. هناك ملاحظة أخرى لا بد من إيرادها هنا: ألا يثير الحيرة اعتماد الكتابة والعادة السرية على استخدام الأداة نفسها. اليد؟

- وهي التي تستخدم أيضاً في خياطة زر أو حكّ أنف.

- كم أنت مبتذل! ومن ثم، ماذا يثبت هذا؟ إن الاستخدامات المبتذلة تتعارض مع الاستعمالات النبيلة.

- وهل العادة السرية استعمال نبيل لليد؟

- وكيف! يد بسيطة ومتواضعة يمكنها وحدها إعادة بناء شيء بمثل هذا التعقيد وشيء مكلف، ويصعب إظهاره على المسرح ومثقل بالحالات النفسية كالجنس. أليس هذا رائعاً؟ إن هذه اليد اللطيفة وبدون متاعب تمنح متعة تساوي (أو تفوق) المتعة التي تمنحها المرأة المزعجة والمكلفة. أليس هذا مثير للإعجاب؟

- بكل تأكيد، إذا كنت ترى الأشياء هكذا...

- لكن هكذا هي الأشياء أيها الشاب! ألست متفقاً معي؟
- اسمع سيد طاش، أنت الذي تُستجوَب وليس أنا.
- بعبارة أخرى، أنت تعطي لنفسك الدور المهم، أليس كذلك؟
- إذا كان هذا يسرّك. ولكن دوري لم يبدُ لي جميلاً حتى الآن، لقد سخرت مني عدة مرات.
- هذا يسعدني في الواقع.
- حسناً لنعد إلى أعضائنا. ألخّص الآن: قلم، خصيتان، قضيب، شفاه، أُذُن، ويد. هل هذا كل شيء؟
- ألا يكفيك هذا؟
- لا أدري، كنت أتصور شيئاً آخر.
- آه، نعم؟ ماذا تريد أيضاً؟ فرج، بروستات؟
- هذه المرة أنت هو البذيء لا، أنت ستسخر مني بكل تأكيد، لكنني أعتقد أن القلب أيضاً كان لازماً.
- القلب، يا إلهي ماذا نفعل به؟
- من أجل المشاعر، الحب.
- هذه الأشياء لا علاقة لها بالقلب. فهي تتعلق بالخصيتين، والقضيب، والشفاه، واليد، هذا كافٍ جداً.
- أنت كلبيّ جداً وأنا لن أتفق أبداً مع هذا.
- رأيك أيضاً لا يهم أحداً كما قلت أنت بنفسك منذ دقيقة. ولكنني لا أرى أين الكلبية في ما قلته. فالمشاعر والحب أشياء متعلقة بالأعضاء. نحن متفقون على ذلك: ولكن اختلافنا راجع

إلى طبيعة هذا العضو. فأنت، أنت ترى في الكتابة ظاهرة قلبية. أنا لا أغضب ولا أرميك بنعوت في وجهك. ولكنني أكتفي بالتفكير بأن لديك نظريات تشريحية غريبة ولذا فهي مثيرة.

- سيد طاش، لماذا تتظاهر بأنك لم تفهم؟

- ماذا تقول لي، أنا لا أتظاهر بشيء يا عديم التربية!

- لكنني في النهاية عندما كنت أتحدث عن القلب أنت تعلم بأنني لم أكن أتحدث عنه بوصفه عضواً!

- آه، لا! وماذا تعني به إذن؟

- أعني به: الانفعال، العاطفة...

- كل هذا داخل قلب غبي مملوء بالكوليسترول!

- هيا. سيد طاش أنت لست ظريفاً.

- لا بكل تأكيد، أنت هو الظريف. لماذا أتيت لتقول أشياء لا علاقة لها بموضوعنا؟

- هل تجرؤ على القول بأن الأدب لا علاقة له بالمشاعر؟

- أترى أيها الشاب، أعتقد أنه ليس لدينا نفس التصور لكلمة «شعور». بالنسبة لي، حين تريد تهشيم وجه شخص ما، فهذا شعور. أما بالنسبة لك فإن البكاء في باب «بريد القلب» في مجلة نسائية، هو شعور.

- ماذا يمكن أن نسميه برأيك؟

- برأيي هو حالة روحية. أعني، قصة جميلة طافحة بالنوايا السيئة نرويها لأنفسنا كي يتولد لدينا الانطباع بأننا نرقى إلى الكرامة الإنسانية، كي نقتنع بأنه حتى في الوقت الذي نتبرز فيه

نكون مفعمين بالروحانية. النساء على الأخص هنّ من يخترعنَ الحالات الروحية لأن نوع العمل الذي يقمنَ به يجعل الرأس فارغاً. وعليه، فإن من خصائص نوعنا الإنساني أن دفاعنا يجد نفسه دائماً مجبراً على العمل حتى عندما لا ينفع في شيء. وهذا محزن، خلل تقني، إنه أصل كل البؤس الإنساني. فبدلاً من الاستسلام لكسل نبيل، لراحة رغيدة، مثل الأفعى النائمة تحت الشمس، فإن دماغ ربات المنازل الحانق، لأنه لا يفيدهنّ في شيء، يبدأ في إفراز سيناريوهات بلهاء ومغرورة، بل هي بالأحرى أكثر تصنّعاً بحيث يبدو لها العمل المنزلي دنيئاً. في حين أنها أشد غباء بكثير من تمرير المكنسة الكهربائية ومن تنظيف المراحيض. فهذه الأشياء لا بد من القيام بها. هذا كل شيء، غير أن النساء يتخيَّلنَ دائماً أنهن يعشن فوق الأرض من أجل مهمة أرستقراطية. أغلبية الرجال هم كذلك أيضاً لكن بعناد أقل، لأنهم يشغلون دماغهم بالمحاسبة، وبالترقية، وبالوشاية وبالتصريح بالضرائب، وهو ما يترك لهم حيّزاً أقل للهذيان.

- أعتقد أنك متخلف بعض الشيء. فالنساء يعملن الآن أيضاً ولهن اهتمامات لا تقل عن اهتمامات الرجال.

- كم أنت ساذج! إنهن يتظاهرن بذلك. أدراج مكاتبهن تعج بطلاء الأظافر وبالمجلات النسائية، نساء اليوم أسوأ من نساء الأمس، فيما اللواتي كنّ على الأقل، ينفعن في بعض الأشياء. النساء اليوم يمضين وقتهن في الحديث مع زميلاتهن في مواضيع كمشاكل القلب والحريرات. والأمر سيان. وحينما يصيبهن الضجر

كثيراً يضاجعن رؤساءهن مما يمنحهن خدراً لذيذاً، إذ يفسدنَ حياة نساء أخريات. فهذا بالنسبة للمرأة، هو أفضل ترقية. فعندما تحطم امرأة حياة امرأة أخرى، فهي تعتبر هذا إنجازاً ودليلاً قاطعاً على روحانيتها: «أنا أفسد حياتك، إذن أنا لي روح» هكذا تفكر المرأة.

- لدى سماعك، يجزم المرء بأن لديك حساباً تصفّيه مع النساء.

- وكيف! إن واحدة منهن هي التي منحتني الحياة، في حين أني لم أكن قد طلبت منها شيئاً.

- تتحدث للتو وكأنك ما تزال في مطلع المراهقة.

- خطأ، أنا الآن وأكثر من أي وقت مضى أشعر بأنني في مطلع المراهقة.

- غريب جداً، لكن رجلاً أيضاً كان له دور في ولادتك.

- أنا لا أحب الرجال أيضاً، أنت تعرف.

- لكنك تكره النساء أكثر. فلماذا؟

- لكل الأسباب التي ذكرتها لك.

- نعم، ولكنني أجد صعوبة في تصديق عدم وجود سبب آخر. كراهيتك للنساء تفوح منها رائحة الانتقام.

- انتقام؟ من ماذا؟ كنتُ دائماً أعزب.

- ليس السبب هو الزواج، أنت نفسك لا تعرف ربما مصدر الرغبة في الانتقام.

- لقد فهمتك الآن، لا. أنا أرفض الخضوع للتحليل النفسي.

- ولكن دون الوصول لهذا الحد. يمكنك ربما التفكير فيه.
- لكن التفكير بماذا يا إلهي؟
- في العلاقات التي أقمتها مع النساء.
- أية علاقات؟ أية نساء؟
- لا تقل إنك... لا.
- ماذا، لا.
- إنك .. بالنهاية؟
- .... متبتل؟
- أنا متبتل بالتأكيد.
- هذا غير ممكن.
- هذا ممكن جداً.
- لا مع أمراة ولا مع رجل؟
- هل تظن أن لدي سيماء لوطي سلبي؟
- لا تأخذ كلامي من الجانب السيئ هناك مثليون لامعون جداً.
- أنت تضحكني. تقول هذا وكأنك تقول «بل هناك قوادون شرفاء» كأن هناك تناقضاً بين لفظ «مثلي» ولفظ «لامع». لا، أنا أحتج ضد رفضك القبول بأنني أستطيع أن أكون متبتلاً.
- ضع نفسك في مكاني.
- كيف تريد من إنسان مثلي أن يكون مكانك.
- لم أفكر بهذا! في رواياتك تتحدث عن الجنس كعالِم في علم الحشرات!

- أنا دكتور مجاز في العادة السرية.

- هل يمكن أن تكفي العادة السرية لمعرفة الجسد جيداً؟

- لماذا تتظاهر بأنك قرأت لي؟

- اسمع، لست في حاجة لقراءتك لأعرف أن اسمك مقترن بالخطاب الجنسي الأكثر دقة والأكثر خبرة.

- هذا مسلّ، لم أكن أعرف.

- بل إنني عثرت مؤخراً على أطروحة تحمل العنوان التالي: «الانتعاظ الطاشي من خلال قواعد النحو».

- مضحك، مواضيع الأطروحات تسليني دائماً وتثير شفقتي. هذا ظريف، هؤلاء الطلبة الذين يحاولون تقليد الكبار، فيكتبون تفاهات تكون عناوينها جد منمّقة ومضامينها جد مبتذلة، على غرار المطاعم الراقية التي تعطي للبيض بالمايونيز أسماء رنانة.

- هذا بديهي، سيد طاش، إذا لم تكن ترغب بذلك فلن أتكلم عنه.

- لماذا؟ أليس مهماً؟

- على العكس مهم جداً لكن لا أريد أن أبوح بسر كهذا.

- هذا ليس سراً.

- لماذا لم تقله أبداً، إذن؟

- لا أدري لمن كنت سأقوله. لن أذهب مع ذلك إلى الجزار لأتحدث عن عذريتي.

- بالتأكيد. لكن لا ينبغي أيضاً التحدث عنها إلى الجرائد.

- لماذا؟ هل العذرية ممنوعة من القانون؟

- هيا، هذا جزء من حياتك الخاصة، من حميميتك.

- وكل ما سألتني عنه حتى الآن أيها الردف المزيف أليس جزءاً من حياتي الخاصة؟ أما كنت متردداً في تلك اللحظات. لا جدوى من تمثيل دور العذارى الخائفات (وهذا مقام قول ذلك). هذا لا ينطلي علي.

- لست أوافقك، هناك حدود في إفشاء الأسرار لا يجب تجاوزها. إن الصحفي، هو بالضرورة مفشٍ للأسرار - هذه مهنته - لكنه يعرف إلى أي حد لا يجوز له الذهاب.

- أنت تتكلم عن نفسك بضمير الغائب الآن.

- أتكلم باسم جميع الصحفيين.

- هذا ارتكاس طبقي نموذجي لدى الأوغاد. لقد أجبتك نيابة عن نفسي فقط، من دون أي ضمانة أخرى عدا نفسي. وأقول لك بأنني لن أخضع لمعاييرك. يعود لي وحدي تحديد ما هو سرّ في حياتي الشخصية، وما ليس سراً. عذريتي، لا آبه لها إطلاقاً. افعل بها ما يحلو لك.

- سيد طاش، أعتقد أنك لا تدرك مخاطر هذا الاعتراف: هل تحس نفسك دنساً، مغتصباً..

- قل، إذن، أيها الشاب. جاء دوري لأطرح عليك سؤالاً: هل أنت غبي أم أنك مازوخي؟

- لم هذا السؤال؟

- لأنك إن لم تكن غبياً ولا مازوخياً، فلا يمكنني تفسير سلوكك. أنا أمنحك سبقاً صحفياً رائعاً، أعطيك إياه بلفتة كرم

نزيه. وأنت، بدلاً من القفز على الفرصة كطائر جارح وذكي، تخترع لنفسك وساوس تتردد كثيراً. أتعرف بماذا تخاطر إذا واصلت هكذا؟ إنك تعرض نفسك بسبب حنقي إلى مصادرة السبق الصحفي ليس من أجل الحفاظ على حياتي الخاصة المقدسة بل من أجل إزعاجك. تعلم أن نوبات كرمي لا تدوم أبداً وقتاً طويلاً. خصوصاً عندما يستثار غضبي. كن سريعاً إذن وخذ ما أقدمه لك قبل أن أنتزعه منك. لكن سيكون بإمكانك شكري مع ذلك، فلن يتاح لك في كل يوم أن يمنحك حائز على جائزة نوبل عذريته، أليس كذلك؟

- أشكرك، شكراً جزيلاً، سيد طاش.

- هكذا، أنا أعشق لاعقي المؤخرات من فصيلتك يا عزيزي.

- لكن أنت نفسك من طلب مني أن...

- وإذن؟ أنت لست مجبراً على فعل كل ما أطلبه منك.

- حسناً، لنعد إلى موضوعنا السابق. على ضوء اعترافك الأخير يبدو لي أنه بمقدوري فهم جذور كرهك للمرأة.

- آه.

- نعم إن رغبتك في الانتقام من النساء لا تنبع من عذريتك؟

- لا أرى أي علاقة بين الأمرين.

- لكن بلى: أنت تكره النساء لأنه ما من واحدة أرادتك.

وانفجر الروائي بالضحك، حتى اهتز كتفاه.

- ممتاز، أنت مضحك للغاية، عزيزي.

- هل أفهم بأنك تدحض تفسيري؟

- أعتقد أن تفسيرك يدحض نفسه بنفسه يا سيدي. لقد اخترعت للتو نموذجاً لبناء سببية معكوسة. تمرين يبرع فيه الصحفيون في الحقيقة. لكنك عكست مسلّمات المشكلة بحيث أصبحت مثيرة للدوار. أنت تقول بأني أكره النساء لأنه ما من واحدة أرادتني، في حين أنني أنا من لم يرد أي واحدة منهن. لسبب بسيط جداً، أنا أكرههن، إنه عكس مزدوج. مرحى أنت موهوب.

- هل تريد إقناعي بأنك تكرههن مسبقاً بدون سبب؟ هذا مستحيل.

- اذكر لي طعاماً تكرهه.

- سمك اللياء، لكن...

- لماذا هذه الرغبة في الانتقام من أسماك اللياء المسكينة.

- ليس لدي أي رغبة في الانتقام من السمك، كنت دائماً أجده سيئاً هذا كل شيء.

- حسناً، على هذا النحو، إذن نحن نتفاهم، ليس لدي رغبة في الانتقام من النساء لكني كنت دائماً أكرههن، هذا كل شيء.

- في النهاية، سيد طاش لا يمكنك المقارنة. ماذا تقول إذا شبهتك بلسان عجل؟

- سيكون ذلك إطراء عظيماً لي، إنه لذيذ.

- هيا، كن جاداً.

- أنا دائماً جاد. أسفاً عليك، أيها الشاب، لأنني لو لم أكن جاداً لم أكن لألاحظ أن هذه المقابلة كانت طويلة جداً وبأنك لا تستحق كرماً كهذا من قِبَلي.

- ماذا فعلت إذن كي لا أستحقه؟

- أنت جاحد ونيتك سيئة.

- أنا نيتي سيئة؟ وأنت؟

- أنت وقح! لقد عرفت دائماً بأن تبنّي الطيبة لا تجديني نفعاً. ليس فقط لأن الآخرين لا يلاحظونها بل لأنهم يرونها بالعكس. صحيح أنك اختصاصي في عكس الأشياء، وأنك تصفني بسوء النية. لذا فإن تضحيتي لن تجدي في شيء. يتفق لي أن أفكر بأنه لو كان ممكناً تصحيح الخطأ لكنت لعبت حتى النهاية ورقة سوء النية لكي أعرف أخيراً ما يريحك ويسعدك. وبعد ذلك أنظر إليك فتثير اشمئزازي بحيث أهنئ نفسي لأنني لم أقلّدك. وحتى لو اضطرني ذلك إلى العزلة. فالعزلة مفيدة إذا أبعدتني عن فجورك. إن حياتي سيئة لكنني أفضلها على حياتكم. اذهب يا سيد: لقد أنهيت الآن خطبتي. إذن ليكن لديك حُسن الإخراج، ليكن لديك الذوق السليم لترحل.

في المقهى المقابل، أثارت قصة الصحفي الحوار من جديد.

- في مثل هذه الحالات، هل تسمح لنا واجبات المهنة بمتابعة المقابلة؟

- سيجيبنا طاش بكل تأكيد: علينا أن نكون مزيفين، لكن نتحدث عن واجبات مهنتنا.

- هذا بالتأكيد ما سيقوله لنا، لكنه ليس البابا على أية حال. لسنا مجبرين على تجرع فظاعاته.

- المشكلة هي أن فظاعاته تفوح منها رائحة الحقيقة.

- هذا ما حدث، أنتم تسيرون داخل سيرك، أنا آسف ولكنني ما عدت قادراً على احترام هذا الرجل، إنه فاجر جداً.

- هذا ما كان يقوله: أنت جاحد. يعطيك السبق الصحفي الذي تحلم به وبدلاً من أن تشكره فأنت تمقته.

- لكن بالنهاية، ألم تسمع الشتائم التي قالها لي؟

- بالتأكيد إنها تتيح لي تفسير غضبك الشديد.

- أنا متلهف إلى أن يكون الآن دورك. سنضحك بالتأكيد.

- أنا أيضاً متلهف إلى أن يكون دوري.

- وما قاله عن النساء، هل سمعته؟

- أوه! لا يمكننا أن نخطّئه في كل شيء.

- ألا ينتابك الخجل؟ لحسن الحظ ليس بيننا نساء ليسمعنك ولكن من سيكون دوره غداً؟

- مجهول، لم يأتِ ليقدم نفسه.

- لصالح من يعمل؟

- لا نعرف.

- لا تنسَ أن غرافلان طلب من كل واحد منا نسخة من الشريط المسجل. نحن ندين له بهذا.

- هذا الرجل قديس، منذ متى وهو يعمل في خدمة طاش؟ ما كان الأمر ليكون مسلياً كل يوم.

- نعم، لكن العمل مع عبقري، لا بد أن يكون رائعاً.

- للعبقري ظهر يستند إليه في هذه القضية.

- ولكن، لماذا يريد غرافلان سماع الأشرطة؟

- يحتاج لأن يعرف جلاده أكثر. أفهم هذا.

- أتساءل كيف يفعل لتحمّل البدين.

- كفّ عن تسمية طاش بهذا الاسم لا تنسَ من يكون.

- بالنسبة لي، ومنذ هذا الصباح، لم يعد هناك أي طاش، سأسميه دائماً بالبدين. ليس علينا بعد اليوم عقد لقاءات مع الكتّاب على الإطلاق.

الفصل الخامس

- من أنتِ وماذا تفعلين هنا؟

- سيدي طاش، نحن في 18 يناير، وهذا هو اليوم الذي خُصِّص لي للقاء بك.

- ألم يقل لك زملاؤك إن...

- لم أرَ أي واحد منهم، وليست لي أية صلة بهم.

- هذه نقطة لصالحك، لكن، كان عليهم أن ينبّهوك، مع ذلك.

- لقد أتاح لي أمس السيد غرافلان، سكرتيرك، الإنصات إلى الأشرطة، وأنا الآن على علم تام بما ينتظرني.

- تعرفين كيف أنظر إليكم، ومع ذلك أتيت؟

- نعم.

- حسناً، مرحى لك، إنها مجازفة من طرفك... والآن يمكنك الانصراف.

- لا.

- لقد حققت مأثرتك، فماذا يلزمك بعد؟ أتريدين أن أوقّع لك إقراراً بذلك.

- لا، سيد طاش، أنا راغبة بالحديث معك.

- أمرك غريب.. اسمعيني جيداً، لا طاقة لي على الصبر أكثر، لقد انتهينا من هذه المهزلة، والآن اغربي عن وجهي.

- هذا غير ممكن، لقد أذن لي السيد غرافلان بالمجيء إلى هنا كباقي الصحفيين، وإذن سأبقى.

- إذاً غرافلان هذا ليس سوى خائن، لقد أوصيته أن يبعد المجلات النسائية عني.

- ولكني لا أعمل لحساب مجلة نسائية.

- كيف؟ أهناك مجلات ذكورية تشغّل نساء في هذه الأيام؟

- ليس الأمر جديداً، سيد طاش.

- تبّاً، هذا نذير شؤم، ها نحن بدأنا بتشغيل النساء، وغدا سنشغّل الزنوج، والعرب والعراقيين!

- هل الحاصل على جائزة نوبل هو من يقول مثل هذا الكلام؟

- إنها جائزة نوبل للآداب، وليست جائزة نوبل للسلام حمداً لله.

- نعم.. نعم.. حمداً لله.

- هل تريد السيدة إظهار ظرافتها..

- أنا آنسة.

- آنسة؟ هذا لا يدهشني، أنت قبيحة؛ ومتطفلة فوق هذا. الرجال على حق حين يرفضون الزواج بك.

- أعتقد، سيد طاش، أنك تخوض حرباً فات أوانها. يمكن لامرأة اليوم أن ترغب في البقاء عازبة.

- أترين الأمر هكذا! قولي بالأحرى أنك لم تعثري على من يضاجعك.

- سيدي العزيز، هذه الأشياء تخصّني وحدي.

- آه.. نعم، تلك حياتك الخاصة، أليس كذلك؟

- تماماً. إذا كان يسليك أن تتحدث للناس عن عذريتك، فهذا حقك. ولكن الآخرين ليسوا مجبرين على تقليدك في ذلك.

- من أنت حتى تصدري أحكاماً عليّ، لست سوى سوقية صغيرة وقحة، قبيحة ومكبوتة جنسياً.

- سيد طاش، سأمنحك دقيقتين، كي تعتذر عن كل ما قلته، سأضبط الوقت وساعتي في يدي. إذا ما انتهت هذه المهلة دون أن تتقدم لي باعتذارك، فسأنصرف، وأدعك تتمرغ وسط قذارة شقتك هذه.

بدا على الثخين أنه يختنق غيظاً في مثل لمح البصر.

- يا للوقاحة! لا فائدة من مراقبة ساعتك، يمكنك أن تظلي هنا سنتين، لن أتقدم لك بأي اعتذار. عليك أنت أن تعتذري، ثم من قال لك إنني متشبث ببقائك هنا؟ فمنذ أن دخلت أمرتك، مرتين على الأقل، بأن لا تريني وجهك. لا تنتظري إذن نهاية دقيقتيك، أنت تضيّعين وقتك، الباب أمامك! أتسمعينني؟

بدت كأنها لم تسمعه، واستمرت متجهمة تنظر إلى ساعتها. أي شيء أقصر من دقيقتين؟ ومع ذلك، فإنهما حين تحسبان بدقة وسط صمت رهيب، تبدوان لامتناهيتين.

كان لفظاظة العجوز متسع كي تتحول إلى ذهول.

- حسناً، لقد انقضت الدقيقتان، وداعاً سيد طاش، سُعِدت بمعرفتك.

نهضت وسارت نحو الباب.

- لا تنصرفي، آمرك أن تبقي هنا.

- هل تريد أن تحدثني في أمر ما؟

- اجلسي...

- لقد فات أوان اعتذارك، سيد طاش، المهلة انتهت.

- ابقي. تباً لك.

- وداعاً.

فتحت الباب.

- أعتذر لك، أسمعتني؟ أعتذر!

- قلت لك بأن الأوان قد فات.

- تباً لك، إنها المرة الأولى التي أعتذر فيها لأحد طوال حياتي!

- لأن طريقتك في تقديم الاعتذار سيئة من دون شك.

- هل لديك ما تأخذينه على اعتذاري؟

- نعم، لدي مآخذ كثيرة على اعتذارك، أولاً، جاء متأخراً، وعليك أن تعرف بأن الاعتذارات المتأخرة تفقد نصف قيمتها، ثم إن كنت تتحدث لغتنا بشكل سليم، فلا يقال: «أعتذر»، بل «أتقدم لك باعتذاري»، أو من الأفضل أن يقال «تقبّلي اعتذاري»، أو أفضل من ذلك «تفضلي بقبول اعتذاري». على أن الصيغة المثلى هي: «ألتمس منك أن تتفضلي بقبول اعتذاري».

- أي جعجعة منافقة هذه!

- منافقة أم غير منافقة، سأذهب حالاً، إذا لم تتقدم لي باعتذارك بصيغة لائقة وحسب الأصول.

- أرجوك أن تتفضلي بقبول اعتذاري.

- يا آنستي.

- أرجوك يا آنستي، أن تتفضلي بقبول اعتذاري. هل أنت مسرورة إذن؟

- ليس تماماً، هل سمعت نبرة صوتك؟ تبدو كما لو أنك تسألني عن ماركة ملابسي الداخلية.

- وما هي ماركة ملابسك الداخلية؟

- وداعاً، سيد طاش.

فتحت الباب من جديد، فصاح البدين في عجل:

- أرجوك يا آنستي، أن تفضلي بقبول اعتذاري.

- هذا أفضل، فليكن الأمر أسرع في المرة القادمة. ولكي أعاقبك على بطئك، آمرك بأن تقول لماذا لا تريدني أن أذهب.

- ماذا؟ لم ينتهِ الأمر بعد؟

- لا. أعتقد أنني أستحق اعتذاراً كاملاً، وبما أنك حصرته في صيغة واحدة، فهذا يعني أنك لم تكن صادقاً. ولكي أقتنع تماماً، فأنا بحاجة إلى أن تبرر لي ذلك، أن تخلق لدي الرغبة بمسامحتك، لأنني لم أقبل بعد اعتذارك، وسيكون الأمر سهلاً.

- أنت تبالغين!

- أأنت مَن يقول ذلك؟

- انصرفي حالاً إذن.

- حسن جداً.

وفتحت الباب مرة أخرى.

- لا أريدك أن تغادري لأنني أحس بالملل. منذ أربعة وعشرين عاماً وأنا ضَجِر.

- ها قد وصلنا إذن.

- فلتفرحي، سيكون باستطاعتك أن تكتبي في جريدتك بأن بريتكستا طاش عجوز مسكين يقهره الضجر منذ أربعة وعشرين عاماً. وبذلك يمكنك أن تقدميني لقمة سائغة لشفقة الرعاع المقيتة.

- سيدي العزيز، أعلم أنك تعاني من الملل، أنت لا تطلعني على شيء.

- هذا مجرد ادعاء، فكيف يمكنك معرفة ذلك؟

- ثمة تناقضات تكشف كل شيء، لقد أصغيت إلى تسجيلات الصحفيين الذين برفقة السيد غرافلان، وقلت فيها إن سكرتيرك قد نظّم لك حوارات صحفية ضد إرادتك. غير أن السيد غرافلان أكد لي العكس، وقد تحدث لي عن سعادتك الغامرة لأنك ستُجري حوارات صحفية.

- الخائن...

- لا شيء مخجل في الأمر، سيد طاش، حين علمت بذلك توسّمت فيك شيئاً من اللطف.

- لست بحاجة إلى تعاطفك.

- ومع ذلك، أنت لا ترغب في أن أمضي. أي تسلية تنوي الاستمتاع بها معي إذن؟

- لي رغبة جامحة في أن أضجرك، لا شيء يسليني أكثر من ذلك.

- هل تراني سعيدة بهذا. هل تتخيل بأن ذلك يدفعني لأن أبقى معك؟

- واحد من أعظم كتّاب القرن يمنحك شرفاً عظيماً حين يبوح لك أنه في حاجة إليك، ألا يكفيك ذلك؟

- أنت تريد، ربما، أن أبكي فرحاً، وأن أغرق قدميك بدموعي؟

- ذلك يعجبني كثيراً، نعم أحب أن يزحف الآخرون أمامي.

- في هذه الحالة، لن تبقيني لحظة واحدة، لست من هذه الطينة.

- بل ابقي.. أنت عنيدة، ذلك يسلّيني. فلنلجأ إلى رهان، ما دمت تبدين غير عازمة على مسامحتي. أترغبين في ذلك؟ أراهنك على أنني سأجعلك في نهاية الحوار، تتراجعين عن كل ما طلبته مثل الذين سبقوك. أتحبين الرهانات؟

- أنا لا أحب الرهانات المجانية. أفضّل المجازفة.

- أنت مهتمة بذلك؟ أتريدين المال؟

- لا.

- آه. آنستي، أتترفعين عن مثل هذه الأشياء؟

- ليس الأمر على هذا النحو. ولكني لو كنت أريد المال، فسأتوجه إلى شخص أثرى منك، أما أنت فأريد منك شيئاً آخر.

- إذن، لا يتعلق الأمر ببكارتي؟

- أنت مهووس بهذه البكارة أليس كذلك؟ ينبغي أن أكون محرومة لكي أرغب بفظاعة كهذه.

- شكراً، وماذا تريدين إذن؟

- كنت تتحدث عن الزحف. أنا أقترح أن يكون الرهان واحداً لكلينا: فإذا ما انهزمت أنا فسأزحف أمام قدميك، وإذا انهزمت أنت فستزحف أمام قدمي، أنا أيضاً أحب أن يزحف الناس أمامي.

- أنت خرقاء حين تظنين بأنك تستطيعين أن تقارني نفسك بي.

- يبدو لي أنني فزت قبل قليل بالجولة الأولى.

- يا صغيرتي البائسة، أتسمين ذلك جولة أولى؟ لم يكن ذلك سوى مقدمات لطيفة.

ومن خلالها قمت بسحقك.

- ربما. ولكن كنت تمتلكين من أجل ذلك الانتصار ذريعة واحدة دامغة، وقد فقدتها الآن.

- آه؟

- نعم، كانت ذريعتك هي الانصراف. أما الآن، وحين ترغبين بالرهان، لن يعود بوسعك ذلك، لقد شاهدت عينيك تلمعان لفكرة أن أزحف أمام قدميك. وهذه الإمكانية تعجبك جداً. لن تغادي إذن قبل نهاية الرهان.

- ربما ستأسف على ذلك.

- ربما، لكنني أشعر في هذه الأثناء بأنني سأتسلى. إني أحب أن أسحق الناس، وأن أطوّح بالنوايا السيئة التي تستبدكم جميعاً.

وهناك ممارسة تجعلني سعيداً بوجه خاص: وهي أن أهين النساء المغرورات، الحقيرات مثلك.

- أما أنا، فتسليتي المفضّلة هي أن أنفس البالونات الضخمة المزهوّة بنفسها.

- ما قلته الآن يشكل صورة نموذجية تماماً عن عصرك. هل أنا إزاء طاحونة شعارات؟

- لا داعي للقلق سيد طاش، فأنت أيضاً برجعيتك الفظة، وبعنصريتك، صورة نموذجية عن زمننا. أنت مزهو باعتقادك بأنك مفارق لعصرنا، ولكنك لست كذلك. ولست حتى كاتباً أصيلاً: لكل جيل لعنة تطارده، شيطان مقدّس يقوم مجده على الذعر الذي يوحي به للأرواح الساذجة. وهل من الضروري أن أقول لك كم هو هشّ مجدك، ولن تلبث أن تصبح نسياً منسياً؟ أنت محق حين تؤكد بأنه ما من أحد يقرأ أعمالك. والآن تريد بفظاظتك وشتائمك هذه أن تذكِّر العالم بوجودك، وحين تخرس صيحاتك، فما من أحد سيتذكرك، بما أن أعمالك لن يقرأها أحد، وسيكون هذا أفضل بالتأكيد.

- آه، على هذه القطعة البلاغية اللذيذة، يا آنستي، أين تعملتِ كل هذا؟ هذا المزيج من العدوانية الهشة والتحليقات الشيشرونية[1]، والمشوبة (إذا أردنا القول) بلمسات هيغلية[2]

---

(1) شيشرون (106 ق.م - 43 ق.م) خطيب روماني بارع.

(2) هيغل (1770 - 1831) فيلسوف ألماني أحد أبرز ممثلي الفلسفة المثالية.

وسوسيولاتية: يا لها من تحفة رائعة.

- سيدي العزيز، اذكر أنني، بالرهان أو بعدمه، ما أزال صحافية. وكل ما تفوهت به تم تسجيله.

- هائل. نحن الآن بصدد إثراء الفكر الغربي بجدليته الأشد بريقاً.

- جدلية. تلك هي الكلمة التي تستخدم حين لا يعود بحوزتنا كلمات أخرى، أليس كذلك؟

- ملاحظة جيدة، إنها بلاغة الصالونات.

- هل علي أن أستنتج من هذا أنه لم يعد لديك ما تقوله لي؟

- لم يكن لدي أبداً ما أقوله لك يا آنستي. حينما يضجر المرء مثلما أنا ضجر منذ أربعة وعشرين عاماً، لا يكون لديه ما يقوله للناس. وإذا كان يطمح إلى رفقتهم، فعلى أمل أن يتسلى إن لم يكن بفكرهم فعلى الأقل بترهاتهم. افعلي شيئاً إذن وسليني.

- لا أعرف إن كنت سأنجح في تسليتك، ولكنني متيقِّنة من أني سأفلح في إزعاجك.

- إزعاجي يا صغيرتي البائسة! إن تقديري لك قد هوى إلى الحضيض. أنت تزعجينني! يمكنك في النهاية أن تقولي أسوأ من ذلك، كان عليك أن تقولي أزعجك لا أكثر. إلى أي عهد يعود هذا الاستعمال غير المتعدي لفعل أزعج؟ إلى أيار عام 68؟ لم يكن هذا ليدهشني. فهو يذكر برائحة المولوتوف وبمتراس صغير، وبثورة صغيرة لطلاب ذوي تغذية حسنة، وبمستقبل صغير زاهر لأبناء عائلات ميسورين. الرغبة في «الإزعاج» يعني الرغبة في

وضع الأمور موضع التساؤل، هي الرغبة في إيقاظ الوعي، وليست مرتبطة بفعل معين، لو سمحت، بل هي أذكى من ذلك بكثير، وأكثر عملية، لأنها في الواقع تسمح بعدم تحديد ما سنكون عاجزين عن تحديده.

– لماذا تهدر وقتك بقولك هذا؟ فإذا حددت موضوعي المباشر، قلت: «أزعجك».

– أوه، ليس هذا أفضل بكثير يا صغيرتي المسكينة كان عليكِ أن تكوني مساعدة اجتماعية. الطريف في الأمر هو اعتزاز أولئك الناس الذين يعلنون بأنهم يريدون الإزعاج، يتحدثون إليك بشعور من الرضى، كشعور المخلّص الذي يسير في طريق التطور. زاعمين أن لديهم رسالة، إذن، فلتقومي بتوعيتي، ازعجيني، فلننفجر بالضحك.

– هذا مدهش، لقد بدأت بتسليتك الآن.

– أنا مستمع جيد. تابعي.

– فليكن، قبل قليل قلت لي إنه ليس لديك ما تقوله لي، ولكن هذا لا ينطبق عليّ.

– دعيني أخمّن، ما الذي يمكن أن تقوله لي أنثى صغيرة، من نوعك؟ إن المرأة ليس لها قيمة في أعمالي؟ وإن الرجل لن يفلح قط في التفتح والازدهار.

– لم يحالفك التوفيق.

– إذن، هل تريدين ربما أن تعرفي من الذي يقوم بخدمة المنزل هنا؟

- ولم لا؟ هذا سيمنحك لمرة واحدة فرصة أن تكون مفيداً؟

- هكذا إذن، فلتمارسي استفزازك، فهو سلاح الضعفاء. حسناً اعلمي بأن امرأة برتغالية تأتي كل خميس بعد الظهر لتنظيف شقتي وأخذ غسيلي الوسخ، تلك على الأقل، امرأة تقوم بعمل محترم.

- في إيديولوجيتك، فإن المرأة تبقى في البيت، وفي يدها ممسحة ومكنسة أليس كذلك؟

- في إيديولوجيتي، المرأة لا وجود لها.

- هذا أفضل، من المؤكد أن لجنة جائزة نوبل أصيبت بضربة شمس يوم قامت باختيارك.

- للمرة الأولى يحدث التوافق بيننا. تاريخياً جائزة نوبل هذه هي ذروة تاريخ سوء الفهم. فمنحي جائزة نوبل للآداب يعادل منح جائزة نوبل للسلام لصدام حسين.

- لا داعي للزهو، فصدام حسين أوسع شهرة منك.

- هذا طبيعي، الناس لا يقرؤون أعمالي، لو كنت مقروءاً لكنت أكثر ضرراً وأوسع شهرة منه.

- دعني أتوقف هنا، لا أحد يقرأ أعمالك. فبماذا تفسر هذا الرفض العام لقراءتها؟

- إنها غريزة البقاء، ردّ فعل مناعي.

- إنك تجد دائماً تفسيرات مطرية لك. إذا لم يقرأ الناس أعمالك فهذا يعني ببساطة أنها مملة.

- مملة؟ ما أجمل هذا التعريض اللطيف! لماذا لا تقولين إنها تخرّي؟

- لا أرى أيّ ضرورة للتشبث بهذه اللغة القذرة. لكن سيدي، لا تتهرب من سؤالي.

- هل أنا ممل؟ سأعطيك بحسن نية جواباً باهراً. أنا الأقل قدرة على معرفة الإجابة على سؤالك من كل سكان هذا الكون. اعتقد كانط بعمق أن **نقد العقل الخالص** كتاب يثير الاهتمام، ولم يكن هذا خطأه، كان أنفه شامخاً، أنا أيضاً، آنستي، أجد نفسي مضطراً، إلى أن أعيد لك سؤالك عارياً: هل أنا مضجر؟ وبما أنك بليدة، فإن جوابك ستكون له أهمية أكثر من جوابي، رغم أنك بدون شك لم تقرئي أعمالي.

- أنت مخطئ، بل إن أمامك واحدة من الناس القليلين الذين قرأوا رواياتك الاثنين والعشرين، دون إغفال سطر واحد.

ظل البدين صامتاً مدة أربعين ثانية.

- مرحى. أنا أحب الناس القادرين على مثل هذا الكذب.

- آسفة، إنها الحقيقة. لقد قرأت أعمالك كلها.

- تحت تهديد فوهة مسدس؟

- قرأتها بإرادتي الخاصة، لا بل برغبتي الخاصة.

- هذا مستحيل. إذا كنت قد قرأت كل أعمالي، فلن تكوني كما أراك الآن.

- فكيف تنظر إلي في الحقيقة؟

- أرى أنثى صغيرة تافهة.

- هل تزعم بأنك تعرف ماذا يجري في رأس هذه الأنثى الصغيرة التافهة؟

- كيف؟ هل يحدث شيء في رأسك؟ Tota mulier in utro .

- للأسف، أني لم أقرأ أعمالك بأحشائي، لذا ستكون مجبراً على تقبّل آرائي.

- هيا، فلننظر قليلاً إلى ما تسميه «رأي».

- قبل كل شيء، ولكي أجيب على سؤالك، لم أشعر بالملل لحظة وأنا أقرأ رواياتك الاثنين والعشرين.

- يا للغرابة، كنت أعتقد أن القراءة من دون فهم أمر مضجر.

- والكتابة دون فهم، أليس مضجراً أيضاً.

- أتلمّحين إلى أنني لم أفهم ما كتبته؟

- أقول بالأحرى إن كتبك تختنق بادعاء العظمة. وهذا ما شكّل جانباً من جمالها: شعرت، وأنا أقرأ أعمالك، بتناوب مستمر بين مقاطع مثقلة بالمعنى وباستطرادات مليئة بالادعاء المطلق. مطلق لأن الادعاء يمس الكاتب مثلما يمس القارئ. وأنا أتخيل هذا الابتهاج الذي شعرت به حين كتبت هذه الاستطرادات الجوفاء والهذيانية، وألبستها مظهر العمق والضرورة تلك. بالنسبة لإنسان فاضل مثلك، كانت اللعبة لذيذة.

- بماذا تهذين؟

- بالنسبة إليّ أيضاً كان ذلك لذيذاً. فهذا القدر من النوايا السيئة التي تصدر عن كاتب يفترض فيه أن يحاربها كان شيئاً ساحراً. كم سيكون ذلك مغيظاً لو أن سوء نيتك كان متسقاً. غير أن الانتقال المتواصل من حُسن النية إلى سوء النية هو خداع عبقري.

- وهل تعتبرين نفسك، يا صغيرتي المغرورة، قادرة على التميز بين هذا وذاك؟

- وهل هناك أسهل من ذلك؟ ففي كل مرة يثير فيها مقطع ضحكي، كنت أدرك أن هناك خداع. وقد وجدت ذلك براعة فائقة: مجابهة سوء النية بسوء نية، بإرهاب فكري، فأن تكون ماكراً أكثر من خصمك، فإن هذا تكتيك ناجح، بل إنه تكتيك بارع في مواجهة عدو شرس جداً، لست أنا من سيخبرك بأن الميكيافيلية نادراً ما تصيب هدفها: فالهراوات تسحق أفضل من مناورات بارعة.

- أنت تقولين بأنني أخادع، ولكن أي مخادع تافه أنا مقارنة بك أنت التي تدّعين أنك قرأت جميع كتبي؟

- قرأت كل ما كان ضرورياً، فلتستجوبني إن كنت حريصاً على التحقق من ذلك.

- هذا هو شأن المجعجعين: «ما هو رقم لوحة الفولفو الحمراء في فيلم **عباد الشمس**[1]؟ لا تعتمدي عليّ لكي أبخس قيمة أعمالي بمثل هذه الأساليب.

- وما الذي يتوجب عليّ أن أفعله، إذن، حتى أقنعك؟

- لا شيء، أنت لن تقنعيني.

- في هذه الحالة، ليس لدي ما أخسره.

---

(1) الجزء الثامن عشر من سلسلة الرسوم المتحركة «مغامرات تانتان وميلو».

- لم يكن لديك أبداً شيء يمكنك أن تخسريه معي. لأن جنسك الأنثوي يحكم عليك منذ البداية.

- بخصوص هذا، فقد قمت بتفحص سريع لشخصياتك الأنثوية.

- كنت متأكداً من ذلك، هذا يعد بأشياء كثيرة.

- قلت قبل قليل بأن المرأة لا وجود لها في إيديولوجيتك. وأنا مندهشة لأن كاتباً يصرح بمثل هذه الحِكَم ثم يخلق كثيراً من النساء من ورق. على كل حال لن أستعرضها كلها، لكنني أحصيت في عملك حوالى ست وأربعين شخصية نسائية.

- إني أتساءل، ماذا يثبت ذلك؟

- يثبت بأن المرأة موجودة في إيديولوجيتك، وهذا هو التناقض الأول، وسترى أن هناك تناقضات أخرى.

- أوه، الآنسة تتصيد التناقضات! اعلمي يا سليلة المعلمين أن بريتكستا طاش رفع التناقضات إلى مستوى الفنون الجميلة. هل يمكنك أن تتخيلي ما هو أكثر أناقة، وحذقاً وأشد إثارة للحيرة وأقوى حدة من نظامي المتناقض - ذاتياً؟ ها هي ذي دجاجة حبشية صغيرة لا تنقصها سوى النظارات تعلن بسحنة المنتصر أنها كشفت عن بعض التناقضات الفظة في أعمالي! أليس رائعاً أن يقرأ أعمالك جمهور بالغ الرهافة؟

- أنا لم أقل أبداً إن هذا التناقض فظ.

- لا، لكن من الواضح أنك تفكرين في ذلك.

- أنا في وضع يؤهّلني أكثر منك لمعرفة ما أفكر فيه.

- هذا يحتاج إلى برهان.

- البرهان، أني وجدت هذا التناقض مثيراً للاهتمام.

- يا للعجب!

- كنت أقول إذن، ست وأربعون شخصية نسائية.

- يا صغيرتي، حتى يكتسي إحصاؤك بعض الأهمية، كان عليك أن تحصي أيضاً الشخصيات الذكورية.

- لقد قمت بذلك.

- يا لنباهتك!

- ثلاث وستون شخصية ذكورية.

- يا صغيرتي البائسة، إن كنت لا تثيرين شفقتي، فلن أحرم نفسي من الضحك من مثل هذا التفاوت.

- الشفقة شعور يتوجب استبعاده.

- أوه، الآنسة قرأت زفايغ Zweig![1] كم هي مثقفة! ألا ترين يا عزيزتي أن الخشنين مثلي يحرصون على قراءة **مانطيرلان**[2]، يبدو أن قراءته قد تنقصك بنحو شنيع. أنا أشفق على النساء، لذا فأنا أكرههن. والعكس صحيح.

- ما دمت تكنّ مثل هذه الأحاسيس النبيلة تجاه بنات جلدي، فلتفسر لماذا خلقت ستاً وأربعين شخصية نسائية.

- أنا لن أفعل، هيا فسّري لي أنت ذلك، أما أنا فلن أتخلى

---

(1) ستيفان زفايغ (1881 - 1942) كاتب نمساوي من أصل يهودي.

(2) هنري مانطيرلان (1895 - 1972) روائي فرنسي.

أبداً عن مثل هذه التسلية لأي سبب من الأسباب.

- لست أنا من يفسّر لك عملك. ولكن، يمكنني أن أشاركك في بعض الملاحظات.

- افعلي ذلك، أرجوك.

- سأذكرها لك من دون ترتيب. لقد كتبت كتباً ليس فيها نساء مثل **مديح التخمة**، وبالتأكيد...

- ولماذا «بالتأكيد»؟

- لأنه كتاب بدون شخصيات.

- أنت حقاً قرأت أعمالي، جزئياً على الأقل.

- ليست هناك أي امرأة في رواية **المذيب**، وفي **جواهر من أجل مذبحة**، و**بوذا في كأس ماء**، و**اغتيال القبح**، و**الكارثة الكاملة**، و**موت ثم أعبر**، والأكثر اندهاشاً في: **البوكر**، **المرأة**، **الآخرون**.

- أي براعة فائقة من طرفي!

- هناك إذن ثماني روايات بدون نساء. اثنتان وعشرون رواية ناقص ثمان، يبقى أربع عشرة. إذن تبقى لنا أربع عشر رواية تقتسم الست والأربعين شخصية نسائية.

- كم هي جميلة هذه المعلومات.

- توزيع الشخصيات لم يكن متجانساً بالتأكيد، ضمن الروايات الأربعة عشرة المتبقية.

- ولماذا «بالتأكيد»؟ أرتعب من كل هذه الـ «بالتأكيد» التي تظنين أنك مرغمة على استعمالها للحديث عن كتبي، كما لو أن

أعمالي كانت شيئاً تتوقعه مواهبك الشفافة جداً.

- لأن أعمالك كانت بالتحديد غير متوقعة، فقد استخدمت تعبير «بالتأكيد».

- أرجوك دعك من هذه السفسطة.

- الرقم القياسي في عدد الشخصيات النسوية موجود في رواية **اغتصابات مجانية بين حربين** التي ضمّت ثلاثاً وعشرين امرأة.

- يمكن تفسير ذلك.

- ست وأربعون رواية ناقص ثلاث وعشرين، يبقى ثلاث وعشرون رواية.

- إحصاء رائع.

- إذا سمحت لنفسي باستخدام كلمة غير لائقة، فقد كتبت أربع روايات أحادية الجنس الأنثوي.

- وهل يمكنك أن تسمحي لنفسك بذلك؟

- إنها صلاة بالتحطيم، ساونا، وملذات أخرى، النثر ونتف الشعر، موت من دون إكمال.

- وماذا تبقى لنا من هذا الحشد؟

- تسع روايات وتسع عشرة امرأة.

- والتقسيم؟

- **الناس القذرون**: ثلاث نساء. أما الكتب الأخرى فامرأة واحدة، **الصلب من دون عناء**، **انحلال ربطة الساق**، **تبريك ولعنة**، **عبيد الواحة**، **الأغشية**، **ثلاثة صالونات صغيرة**، **النعمة الملازمة** - ويبقى منها كتاب واحد.

- لا ، لقد ذكرتها كلها.

- أتعتقد ذلك؟

- نعم، قرأت درسك جيداً.

- أنا مقتنعة بأنني أنقصت واحداً من الكتب. عليّ أن أعيد الإحصاء من البداية.

- آه، لا ، لن تعيدي الإحصاء!

- بل ينبغي ذلك، وإلا فستنهار إحصاءاتي.

- أنا أعفيك من ذلك.

- هذا أسوأ. سأبدأ من جديد. هل لديك قلم وورقة؟

- لا.

- هيا ، سيد طاش، ساعدني، سنربح الوقت.

- قلت لك بألا تعيدي الإحصاء ، لقد أتعبت نفسك بإحصائك هذا!

- إذن جنّبني هذه الإعادة، واذكر لي العنوان الناقص.

- لكني ليست لدي أية فكرة عن ذلك. لقد نسيت نصف العناوين التي ذكرتها.

- هل نسيت أعمالك؟

- بالطبع سترين حين يكون لك من العمر ثلاث وثمانون سنة.

- ومع ذلك فهناك بعض رواياتك التي لم تنسها.

- بدون شك. ولكن ما هي بالضبط؟

- لست أنا من سيقول لك ما هي.

- أية خسارة. إن حكمك يمتعني جداً.

- أنا مسرورة جداً لذلك. والآن قليلاً من الصمت، من

فضلك. سأعيد: **رواية دفاع عن التخمة**. هذه واحدة، **مذيب**..

- هل تسخرين مني أم ماذا؟
- يصبح عندنا اثنان: **جواهر من أجل مذبحة**. ثلاثة.
- هل فقدت صوابك؟
- هل لديك العنوان الناقص؟
- لا.
- لا يهم. **بوذا في كأس ماء**، أربعة **اغتيال القبح**. خمسة.
- 165. 28. 3925. 424.
- لن تفلح في إرباكي. **الكارثة التامة**. ستة، **موت ثم أعبر**. سبعة.
- هل تريدين كاراميلا؟
- لا. **ثم البوكر، المرأة، والآخرون**. ثمانية **واغتصاب مجاني بين حربين** تسعة.
- تريدين ألكسندرا؟
- اسكت، **صلاة بالتحطيم**. عشرة.
- أنت تحافظين على رشاقتك أليس كذلك ها؟ كنت متأكداً من ذلك، ألا تجدين نفسك نحيفة هكذا.
- **السونا وملذات أخرى**، إحدى عشرة.
- كنت أنتظر جواباً من هذا القبيل.
- **النثر لنتف الشعر**. اثنتا عشرة.
- قولي إذن، هذه بلاهة. أنت تذكرينها لي بالترتيب نفسه كما في المرة السابقة.

- ها أنت ترى بأن لك ذاكرة جيدة، **موت دون إكمال، ثلاث** عشرة.

- لا ضرورة للمبالغة. ولكن لماذا لا تعدينها حسب تسلسلها الزمني.

- أنت تتذكر حتى تسلسلها الكرونولوجي؟ **أناس قذرون** أربع عشرة **الصلب من دون عناء** خمس عشرة.

- كوني لطيفة، توقفي.

- بشرط واحد: أن تذكر لي العنوان الناقص، أنت تتمتع بذاكرة جيدة جداً لكي تتذكره.

- هذا صحيح. ولكن ضعف الذاكرة سببه هذه التشوشات.

- **انحلال ربطة الساق**، ستة عشر.

- هل ستواصلي طويلاً على هذا النحو؟

- الوقت الذي يلزم لإنعاش ذاكرتك.

- ذاكرتي؟ قلت ذاكرت «ي».

- نعم.

- هل ينبغي أن أفهم بأنك لم تنسي الرواية الناقصة؟

- كيف يمكن أن أنساها؟

- لماذا لا تذكرينها أنت إذن؟

- أريد سماعها منك.

- أكرر لك بأنني لا أتذكرها.

- لا أصدقك. كان بإمكانك نسيان الأخريات. إلا هذه.

- بماذا تتميز عن الأخريات؟

- أنت تعرف ذلك جيداً.

- لا. إني عبقري أجهل نفسي.

- دعني أضحك.

- أخيراً إذا كانت هذه الرواية خارقة إلى هذا الحد. لكانوا حدثوني عنها قبلاً، غير أنهم لم يحدثوني عنها أبداً. فحين يدور الحديث عن أعمالي يُستشهد دائماً بالروايات الأربع نفسها.

- أنت تعلم جيداً بأن هذا لا يعني شيئاً.

- آه. أنا أرى، الآنسة من متشدقات الصالونات. من أولئك اللواتي يهتفن «عزيزي، هل تعرف بروست»؟ ولكن لا، ليس **البحث عن الزمن الضائع**، لا تكوني سوقية. أنا أكلمك عن مقاله الصادر في سنة 1904 **بالفيغارو**...

- لنقل هذا، أنا متشدقة ولكن أذكر لي العنوان الناقص من فضلك.

- للأسف، لن أفعل ذلك.

- هذا يؤكد افتراضاتي.

- افتراضاتك؟ هل ترين ذلك؟

- حسناً بما أنك ترفض التعاون، سيكون علي أن أبدأ تعدادي من جديد، لا أتذكر إلى أين وصلت؟

- لا حاجة بك لتكرار هذه اللائحة الطويلة. فأنت تعرفين ذلك العنوان الناقص.

- للأسف، أخشى أن أكون قد نسيته مجدداً، **دفاع عن التخمة** واحد.

- كلمة أخرى، وأخنقك، رغم عجزي.

- تخنقني؟ يبدو لي أن اختيار هذا الفعل له دلالة كاشفة.

- أتفضلين بأن أخنقك بضربة على العنق؟

- هذه المرة، لن تنجح، يا سيدي العزيز في تلافي الموضوع، حدثني عن الخنق إذن.

- ماذا؟ هل كتبت رواية هذا عنوانها؟

- ليس بالضبط.

- اسمعي، لقد غدوت مزعجة بتخميناتك. اذكري لي هذا العنوان لننتهي من الأمر.

- لا أتعجّل الانتهاء منه. أنا أستمتع كثيراً.

- أنت تستمتعين وحدك.

- الوضع طريف بالأحرى. ولكن، لا، دعنا لا نذهب بعيداً، حدثني عن الخنق سيدي العزيز.

- ليس لدي ما أقوله في هذا الموضوع.

- آه. لا؟ ولماذا تهددني به إذن؟

- قلت هذا بالصدفة. كما لو أنني أقول «اذهبي لتطهي بيضة لنفسك!».

- نعم. ومع ذلك، فضّلت تهديدي. بالخنق صدفة، هذا غريب.

- إلى أين تريدين أن تصلي؟ ربما أنت من المهووسات بفلتات اللسان الفرويدية؟ ما كان ينقصني إلا هذا!

- لم أكن أؤمن بفلتات اللسان الفرويدية، منذ دقيقة بدأت أؤمن بها.

- وأنا لم أكن أؤمن بفعالية التعذيب اللفظي. ومنذ عدة دقائق، بدأت أؤمن به.

- هذا إطراء لي. ولكن لنلعب على المكشوف. تريد ذلك؟ لدي كل الوقت حتى تستخرج العنوان الناقص من ذاكرتك، والوقت كله حتى تتحدث عن الخنق، لن أفلتك.

- ألا تشعرين بالعار من مهاجمة عجوز ذي عاهة، بدين، وأعزل ومريض؟

- لا أعرف ما هو العار.

- فضيلة أخرى نسي أساتذتك تلقينها لك.

- سيد طاش، أنت أيضاً لا تعرف الإحساس بالعار.

- طبيعي. ليس لدي أي سبب للإحساس به.

- ألم تقل بأن كتبك كانت ضارة؟

- بالضبط. كنت سأحسّ بالعار لو لم ألحق ضرراً بالإنسانية.

- والحال، ليست الإنسانية هي التي تهمني.

- أنت على حق. الإنسانية ليست مهمة.

- الأفراد هم المهمون. أليس كذلك؟

- الواقع، إنهم نادرون جداً.

- تحدث لي عن شخص عرفته.

- حسناً. سيلين مثلاً.

- آه. لا، ليس سيلين.

- ماذا؟ أليس سيلين مهماً بالنسبة للآنسة؟

- حدثني عن شخص عرفته لحماً وعظاماً. عشت معه، تحدث إليه.. إلخ..

- الممرضة؟

- لا ليس الممرضة. هيا، أنت تعرف إلى أين أريد أن أصل، تعرف ذلك جيداً.

- ليست لي أي فكرة، أيتها المزعجة.

- سأروي لك حكاية صغيرة ستساعد ربما عقلك المسنّ على العثور على ذكرياته.

- حسناً. وبما أنني سأكون معفياً من الكلام لبعض الوقت. أستأذنك بتناول قطعة كاراميلا. أحتاج إليها مع العذاب الأليم الذي تعرّضينني له.

- أسمح لك بهذا.

ووضع الروائي في فمه قطعة كاراميلا كبيرة مربّعة.

- تبدأ حكايتي باكتشاف مدهش. أنت تعرف بأن الصحفيين كائنات عديمة الذمة. تعرف هذا، نقّبت إذن في ماضيك دون أن أستشيرك لأنك كنت ستمنعني من ذلك. أراك تبتسم وأعرف بماذا تفكر: إنك لم تترك أي أثر عنك. وأنك آخر ممثل لعائلتك وليس لك أي صديق على الإطلاق، إجمالاً، لا شيء يمكن أن يعرّفني بماضيك. ولكنك مخطئ يا سيدي العزيز، ينبغي الحذر من الشهود المتسترين. ينبغي الحذر من الأماكن التي عشنا فيها، فهي تتكلم. أراك تضحك مجدداً، نعم. إن قصر طفولتك قد احترق منذ خمسة وستين عاماً. حريق غريب، زد على هذا، أن تفسير

هذا الحريق لم يحدث حتى الآن.

- كيف سمعت كلاماً عن القصر؟ تساءل البدين بصوت ملطف مدبق بالكاراميلا.

- كان الأمر سهلاً. قمت أبحاث أولية في السجلات والأرشيفات. نحن أيضاً لنا خطوتنا نحن الصحفيين. لم أنتظر حتى 10 ديسمبر لكي أهتم بك، فمنذ عدة سنوات وأنا عاكفة على دراسة حالتك.

- كم أنت حاذقة! لا شك أنك فكرت «العجوز على شفا الموت وينبغي الاستعداد ليوم وفاته» أليس كذلك؟

- توقف عن مضغ الكاراميلا وأنت تتحدث. هذا مقزز، كانت أبحاثي طويلة واعتباطية، ولكنها ليست عسيرة. وقد انتهيت إلى العثور على آثار آخر آل طاش المعروفين في هذه السلالة. يشار في عام 1909 إلى وفاة كازيمير وسيليستين طاش اللذين ماتا غرقاً في فيضان مونت - سان - ميشال حيث كان الزوجان الشابان في رحلة. كانا قد تزوجا منذ عامين وتركا صبياً له عام واحد، سأترك لك فرصة تخمين من هو. ولدى سماع خبر موت ابنهم الوحيد المأساوي. فإن والدي كازيمير طاش توفيا من فرط الحزن. هنا صار صعباً عليّ متابعة مسارك. فخطرت لي الفكرة اللامعة لبحث عن اسم أمك خلال فترة شبابها وعلمت أنه إذا كان والدك متحدراً من عائلة غامضة، فإن سيليستين ولدت ماركيزة بلانيز من نبلاء سانت - سيلبيس وهو فرع لم يعد له ذكر الآن. ولا ينبغي الخلط بينه وبين كونتات بلانيز.

- هل لديك النية بأن تعرضي علي تاريخ عائلة ليست عائلتي.

- أنت على حق، لقد تهت قليلاً. لنعد إلى بلانيز دو سانت - سيلبيس، ثمة سلالة تبعثرت في عام 1909، ولكنها احتفظت بدرجة نبالتها. لدى سماعهما لوفاة ابنتهما، قرر الماركيز والماركيزة التكفل بحفيدهما اليتيم وهكذا سكنت قصر سان - سيلبيس ولك سنة من العمر. كنت مدللاً ليس فقط من طرف مرضعتك وجديك وإنما من طرف خالك وزوجته، سيبرين وكوزيما دو بلانيز.

- هذه التفاصيل الجينيالوجية تقطع الأنفاس.

- أليس كذلك؟ وماذا ستقول عما يلي ذلك؟

- كيف؟ ألم ينتهِ الأمر؟

- بالتأكيد لا. لم تبلغ بعد عامين. أنا أحرص على رواية سيرة حياتك حتى الثامنة عشرة.

- هذا مبشّر.

- لو رويتها أنت لما فعلت هذا.

- وإذا لم تكن لدي الرغبة في الحديث عن ذلك؟

- هذا إذن لأنك كنت تخفي شيئاً ما.

- ليس بالضرورة.

- من المبكر جداً تناول هذا الموضوع. في غضون ذلك، كنت طفلاً معبوداً من قِبَل عائلته، رغم الزواج غير المتكافئ لأمك، رأيت بعيني تصاميم القصر الذي لم يعد له وجود اليوم: إنها رائعة. لا ريب أنك عشت طفولة حالمة.

- هل تسمى جريدتك وجهة نظر الصور؟.

- كان لك سنتان حين رزق خالك وزوجته بطفلهما الوحيد ليوبولدين دو بلانيز سانت - سيلبيس.

- اسم كهذا، يسيل له لعابك، أليس كذلك؟ ليس بإمكانك أن تسمي باسم كهذا.

- نعم. لكنني أنا على الأقل ما زلت أحيا.

- هذا يجعلك ظريفة.

- هل علي أن أتابع أم تريد أن أترك لك الكلام؟ بإمكان ذاكرتك الآن أن تنتعش من جديد.

- تابعي. أرجوك، أنا أستمتع بنحو جنوني.

- حسناً، ما زلنا بعيدين عن النهاية، هكذا إذن تم منحك الشيء الوحيد الذي كان ينقصك: رفقة في مثل سنك. أنت لن تعرف أبداً الأيام الكئيبة للأطفال الوحيدين ومن دون أصدقاء. من المؤكد أنك لن تذهب إلى المدرسة أبداً. ولن يكون لك أصدقاء أبداً. لكنك حصلت الآن على ما هو أفضل من كل هذا: قريبة صغيرة معبودة. صرتما لا تفترقان. هل علي أن أحدد الوثيقة التي زودتني بهذه التفاصيل؟

- خيالك، على ما أفترض.

- جزئياً. لكن الخيال في حاجة إلى وقود، يا سيد طاش، وهذا الوقود أدين لك به.

- كفي عن التوقف باستمرار وارو لي عن طفولتي. إن الدمع يطفر من عيني.

- اسخر، يا سيدي العزيز، ولكن سيكون هناك ما سيفجر الدمع في عينيك. كانت لك طفولة جميلة جداً. كان لك كل ما يحلم به أي طفل وأكثر. قصر، مع ملكية شاسعة ببحيرة وغابات، وخيول، وبحبوحة مالية هائلة، تدللك العائلة التي تبنّتك. كنت ودوداً وغير متسلط ومريضاً في الغالب. خدم لطفاء، وخصوصاً، كان لديك ليوبولدين.

- قولي لي الحقيقة، أنت لستِ صحفية. أنت تبحثين عن وثائق لتكتبي رواية بماء الورد.

- بماء الورد؟ هذا ما سنراه. سأستأنف حكايتي، في عام 1919 حدثت الحرب لكن الأطفال يتكيفون مع الحروب وخصوصاً أبناء الأغنياء، ففي قلب جنتكما كان يبدو لكما هذا الصراع تافهاً ولا يوقف أبداً المسار الطويل والبطيء لسعادتكما.

- عزيزتي. أنت قصّاصة من طراز نادر.

- أقل منك.

- واصلي.

- تجري الأيام بطيئة، والطفولة مغامرة قصيرة جداً. ما قيمة العام لشخص راشد؟ أما بالنسبة لطفل، فإن العام يعادل قرناً، وبالنسبة لك كانت تلك القرون من ذهب وفضة. يتذرع المحامون بطفولة تعيسة كظرف من ظروف التخفيف، ولدى سبر ماضيك. تبينت بأن طفولة سعيدة يمكن أيضاً أن تصلح كظرف تخفيف.

- لماذا تصرين على جعلي أستفيد من ظروف التخفيف؟ لست في حاجة إليها.

- سنرى.. لم تفترقا أبداً. أنت وليوبولدين. لن يكون بوسع أحدكما العيش دون الآخر.

- ابن عمة - وابنة خال. هذا قديم قِدَم العالم.

- في مثل هذه الدرجة من الحميمية. هل ما يزال ممكناً التحدث عن ابن عمة وابنة خال؟

- أخ، وأخت. إذا كنت تفضلين.

- أخ وأخت يمارسان زنى المحارم إذن.

- هذا يصدمك؟ يحدث هذا في أحسن العائلات. بدليل...

- أعتقد بأن عليك الآن متابعة الرواية.

- لن أفعل أي شيء.

- أتريد حقاً أن أتابع؟

- هل ترغمينني على ذلك؟

- لا أريد إلا أن أرغمك. ولكن إذا واصلت حكايتي حتى المرحلة التي بلغتها فلن تكون إلا إسهاباً شاحباً وتافهاً لأجمل رواياتك، وأغربها وأقلها معرفة من القراء.

- أنا أعبد الإسهابات الشاحبة والتافهة.

- إنها غلطتك. أنت تريدها، في الواقع، هل تعطينني الحق؟

- بماذا؟

- بأنني صنفت هذه الرواية في أعمالك التي تحتوي على شخصيتين نسائيتين وليس على ثلاث.

- أعطيك الحق المطلق بهذا، يا عزيزتي.

- في هذه الحالة. لن أخشى شيئاً، لأن الباقي أدب. أليس كذلك؟

- لم يكن الباقي فعلاً في تلك المرحلة إلا عملاً أدبياً. لم يكن لي من ورق آخر سوى حياتي. ومن حبر سوى دمي.

- أو دماء الآخرين!

- لم تكن أخرى.

- من كانت إذن؟

- هذا ما لم أعرفه قط، ولكنها لم تكن أخرى. هذا أكيد وأنا ما أزال أنتظر إسهابك أيتها العزيزة الغالية.

- هذا صحيح. مرَّت الأيام ومرَّت، بنحو جيد، جيد جداً. لم تعرف ليوبولدين وأنت شيئاً آخر غير تلك الحياة. ورغم ذلك كنت على وعي بأنها غير عادية وبأنك محظوظ جداً. في قلب جنة عدن تلك بدأتما تشعران بما سميتموه «قلق المحتارين». وفحواه هو ما يلي: «كم من الوقت يمكن أن يدوم هذا الكمال؟». هذا القلق. مثل كل قلق، سيوصل نشوتكما إلى ذروتها مع إضعافها بنحو خطير في الآن نفسه، خطر يتعاظم شيئاً فشيئاً. ومرت السنون أيضاً. بلغ عمرك أربعة عشرة عاماً. وابنة خالك إثنا عشر عاماً، وصلت إلى أوج الطفولة. وهو ما سماه **تورنييه**[1]: «قمة نضج الطفولة» ولكونكما غارقين في حياة حلم، صرتما أطفال حلم. لم يقل لكما أحد هذا أبداً. لكنكما كنتما تحسان بنحو غامض بأن انحطاطاً مهولاً ينتظركما. وسيهاجم جسميكما المثاليين ومزاجيكما اللذين لم يكونا أقل مثالية ليجعل منكما

(1) كاتب فرنسي ولد سنة 1924، حاز على جائزة غونكور.

بالِغَيْن مُعذَّبَيْن. هنا أرى أنك كنت صاحب المشروع الشيطاني الذي سيلي.

- صحيح، إنك تسعين إلى تبرئة شريكتي.

- لا أرى بماذا سيكون عليّ أن أبرئها، الفكرة فكرتك. أليس كذلك؟

- نعم، لكن هذه الفكرة لم تكن إجرامية.

- في البداية لا، لكنها غدت كذلك، بما ترتب عليها من نتائج وخصوصاً استحالة تنفيذها الذي سيتحقق آجلاً أم عاجلاً.

- آجلاً. في المحصلة.

- لا نستبق الأمور. كان لك أربعة عشر سنة ولليوبولدين اثنا عشر. كانت رهن مشيئتك وكان بإمكانك أن تجعلها تفعل أي شيء.

- لم يكن الأمر أي شيء.

- لا، كان الأمر أفدح. أقنعتها بأن البلوغ هو أسوأ الشرور ولكن يمكن تجنّبه.

- وهو كذلك فعلاً؟

- أما زلت تعتقد هذا؟

- لم أتوقف أبداً عن الاعتقاد به.

- لقد كنت دائماً إذن معتوهاً.

- من وجهة نظري كنت دائماً الوحيد الذي يتمتع بعقل سليم.

- بالطبع. في الرابعة عشر من العمر، كنت آنئذٍ سليم العقل حتى إنك قررت بنحو احتفالي بأنك لن تدخل أبداً طور المراهقة.

وكانت سيطرتك على ابنة خالك قوية إلى درجة أنك دفعتها لتقسم قسماً مماثلاً لقسَمك.

- أليس هذا رائعاً؟

- هذا رهن بالظروف. لأنك كنت آنئذ، بريتكستا طاش، قرنت قسَمَكَ المعظَّم بشرط جزائي في حالة انتهاكه. بصريح العبارة أقسمت ودفعت ليوبولدين إلى القسم بأنه إذا خان أحدكما العهد وصار بالغاً فسيقتله الآخر. دون قيد ولا شرط.

- في الرابعة عشر من العمر وكان لي روح جبار.

- أفترض بأن عدة أطفال آخرين صمموا خطة عدم مغادرة الطفولة نهائياً بنجاحات متباينة لكنها وقتية دائماً. ولكنكما أنتما الاثنان، كما يبدو نجحتما في ذلك. صحيح أنكما اتخذتما القرار كليكما معاً. وابتكرت أنت، جبار القضية كل صنوف الإجراءات - شبه العلمية - الكفيلة بجعل جسميكما غير صالحين للمراهقة.

- ليست - شبه علمية - إلى هذا الحد، بما أنها كانت ناجعة.

- سنرى، أتساءل كيف نجوت من مثل هذا العلاج؟

- كنا سعيدين.

- بأي ثمن! كم رحل ذهنك بعيداً في بحثه عن مبادئ بمثل هذا الجنون، على كل حال. كان لك عذر هو أنك كنت في الرابعة عشرة من العمر.

- إذا كان بالإمكان تكرار الشيء نفسه اليوم، فسأقوم به.

- اليوم. لديك عذر الشيخوخة.

- يجب أن تصدّقي بأنني كنت دائماً شائخاً أو طفلاً لأن أحوالي الذهنية لم تتغير أبداً.

- هذا لا يدهشني. فمنذ عام 1922 وأنت معتوه. ابتكرت من عدم ما سميته: «القواعد الصحية لطفولة أبدية» في تلك المرحلة كانت عبارة «القواعد الصحية» تشمل ميادين الصحة العقلية والبدنية: كانت القواعد الصحية نوعاً من إيديولوجيا. غير أن تلك التي ابتدعتها أنت كانت تستحق بالأحرى وصف القواعد اللاصحية؛ لأنها كانت غير سليمة.

- على العكس، سليمة جداً.

- لاقتناعك بأن البلوغ ينجز عمله إبان النوم. أصدرت أمراً بعدم النوم كلياً، أو على الأقل لمدة ساعتين في اليوم لا أكثر. وقد خُيِّل إليك بأن حياة مائية بنحو جوهري أمر مثالي للإمساك بالطفولة. لذا قضيت منذئذ أنت وليوبولدين أياماً وليالي كاملة تسبحان في بحيرات ملكيتكم. حتى في الشتاء أحياناً. تأكلان ما يقيم الأود فقط. وقد حرمت بعض المأكولات ونصحت بأخرى وفق مبادئ تبدو لي مرفوعة إلى أقصى درجات الفنتازيا، حرمت الأطعمة التي اعتبرت بأنها تخص أساساً الكبار مثل البط بالبرتقال والسلطعون الأحمر القاني، والمأكولات ذات اللون الأسود. وبالمقابل نصحت بالفطر، ليس السام منه وإنما المعروف بعدم صلاحيته للأكل مثل فقع الذئب، والذي كنتما تأكلان منه حتى التُّخمة في فصل تكاثره، ولكي تمنعا أنفسكما من النوم تزودتما بعدة علب شاي مفرط القوة. لأنكما سمعتما جدّتكما تذمّه. كنت تعدّه أسود كالمداد وتشرب كميات هائلة وتعطي مثلها لابنة خالك.

- والتي كانت راضية جداً بذلك.

- لنقل بالأحرى أنها كانت تحبك.

- أنا أيضاً كنت أحبها.

- على طريقتك الخاصة.

- لا ترضيك طريقتي؟

- كنت لا تكرهها.

- أنت تجدين ربما بأن الآخرين يتصرفون بنحو أحسن؟ لا أعرف شيئاً أكثر خِسَّة مما يسمونه حب، أتعرفين ما يسمونه حب؟ استعباد مخلوقة تعيسة وجعلها حبلى وقبيحة. هذا ما تسميه الكائنات التي يفترض أنني من جنسها حباً.

- تلعب دور المدافع عن القضايا النسائية الآن؟ نادراً ما رأيتك أقل مصداقية مثلما أنت الآن.

- أنت بليدة حتى البكاء. لعمري، إن ما قلته الآن يقع على النقيض من النزعة النسوية.

- لماذا لا تحاول أن تكون واضحاً لمرة واحدة على الأقل؟

- ولكني شفاف! إنك أنت التي ترفضين الإقرار بأن طريقتي في الحب هي الأجمل.

- ليس لرأيي هنا أي أهمية. بالمقابل، أتمنى معرفة رأي ليوبولدين.

- كانت ليوبولدين، بفضلي، الأكثر سعادة.

- الأكثر سعادة ممن؟ من النساء؟ من المجنونات؟ من المريضات؟ من الضحايا؟

- أنت بعيدة كلياً عن الموضوع، كانت بفضلي، الأكثر سعادة بين الأطفال.

- الأطفال؟ في سن الخامسة عشرة.

- تماماً. ففي السن الذي تصير فيه الفتيات قبيحات، تغطيهن البثور، كبيرات العجز، نتنات، مشعرات، مخادعات، عريضات الورك، مثقفات، شرسات، غبيات وبكلمة واحدة يصرن نساء - في هذا العمر المشؤوم إذن، كانت ليوبولدين الطفلة الأكثر جمالاً، والأشد سعادة، وأمية، وعلماً، كانت الطفلة الأكثر طفولية، وهذا بفضلي أنا وحدي، بفضلي أنا فتلك التي كنت أحبها جنّبتها محنة التحول إلى امرأة، أتحداك أن تجدي حباً كهذا.

- هل أنت متيقن بأن ابنة خالك لم تكن ترغب في أن تصير امرأة؟

- كيف يمكن أن ترغب في أمر كهذا؟ كانت أكثر ذكاءً من أن ترغب في ذلك.

- لا أريد أن تجيبني بضرب من التخمين. أسألك عما إذا أعطتك موافقتها نعم أم لا؟ هل قالت لك بواضح العبارة «بريتكستا أفضّل الموت على مغادرة الطفولة» نعم أم لا؟

- لم يكن من الضروري أن تعلن لي موافقتها بعبارات واضحة. كان ذلك بديهياً.

- هذا ما كنت أفكر به. لم تعطك أبداً موافقتها.

- أكرر لك بأنه لم يكن ثمة حاجة لذلك. كنت أعرف ما تريد.

- كنت تعرف على الخصوص ما تريده أنت.

- هي وأنا أردنا الشيء نفسه.

- بالطبع.

- إلى ماذا تحاولين أن تلمّحي أيتها الحقيرة الصغيرة؟ أتعتقدين بأنك تعرفين ليوبولدين أفضل مني؟

- كلما حدثتك، كلما صرت أؤمن بهذا.

- من الأفضل سماع هذا على الصمم عنه. سأعلمك بشيء تجهلينه حتماً، أيتها الأنثى: لا أحد - أتفهمين - لا أحد يعرف شخصاً مثل قاتله.

- ها نحن وصلنا، انتقلت إلى الاعترافات؟

- الاعترافات؟ ليست اعترافات بما أنك عرفت قبلاً بأنني قتلتها.

- تصور بأنه كان ما يزال لدي بعض الشك. من الصعب الإقرار بأن حائزاً على جائزة نوبل يكون قاتلاً.

- كيف؟ ألا تعرفين بأن القتلة هم أصحاب الحظوظ الوافرة في الحصول على جائزة نوبل؟ انظري إلى **كيسنجر**[1]! وإلى **غورباتشوف**[2]!

---

(1) كسينجر، وزير خارجية سابق للولايات المتحدة الأميركية.

(2) غورباتشوف رئيس سابق للاتحاد السوفياتي تبنى نظريتي البريسترويكا والغلاسنوست، ما أدى إلى انهيار الاتحاد السوفياتي.

- نعم. ولكنك أنت، حزت على الجائزة في الأدب.

- بالضبط. الحائزون على نوبل للسلام قتلة في الغالب الأعم. أما الحاصلون عليها في الأدب فهم قتلة دائماً.

- ليس هناك من سبيل للنقاش معك بجدية.

- لم أكن أبداً جدياً مثلما أنا اليوم.

- هل **مترلينك**، **طاغور**، **بيرانديلو**، **مورياك**، **هيمغنواي**، **باسترناك**، **كاواباتا**، كلهم قتلة؟

- أتجهلين هذا؟

- نعم.

- سأعلمك إذن أشياء كثيرة.

- هل يمكن أن أعرف مصادر معلوماتك؟

- بريتكستا طاش لا يحتاج إلى مصادر معلومات، الآخرون هم الذي يحتاجون إلى مصادر معلومات.

- أنا أرى ذلك.

- لا، أنت لم تري شيئاً. لقد عكفتِ على التنقيب في ماضيّ. نقّبت في أرشيفي ودُهِشت لعثورك على حادثة قتل. لو لم يحدث هذا لكان مدهشاً حقاً. لو كلفت نفسك عناء التنقيب في أرشيف الحائزين على جائزة نوبل بمثل هذا الحرص والدقة فلا شك بأنك ستكتشفين حشداً من جرائم القتل. وإلا ما كانت لتعطى لهم أبداً الجائزة.

- أنت تتهم الصحفيين السابقين بقلب السببية. ولكنك أنت من يقلبها.

- أحذِّرك بلطف بأنك إن أردت مواجهتي في ميدان المنطق، فلن تكون لك أي فرصة.

- بالنظر إلى ما تعنيه بالمنطق. لا شك في هذا، لكنني لم آتِ إلى هنا لأحاججك؟

- لماذا جئت إذن؟

- لكي أكون على يقين بأنك القاتل، شكراً لك لأنك أنهيت آخر ظل من التردد لدي، لقد انطلت عليك خدعتي.

وانفجر البدين بضحكة طويلة.

- خدعتك!. رائع! هل تعتقدين بأنك قادرة على خداعي؟

- لدي كل الأسباب لأعتقد بذلك، ما دمت قد فعلته.

- أيتها البلهاء الصغيرة، المسكينة والمدعية. اعلمي بأن الخداع هو ابتزاز. غير أنك لم تبتزيني بأي شيء بما أنني أعطيتك الحقيقة منذ البداية. لماذا أخفي بأنني قاتل؟ أنا لا أخشى العدالة نهائياً، فأنا سأموت في أقل من شهرين.

- وسُمعتك ما بعد الموت؟

- لن تكون سُمعتي إلا مهيبة. أتخيل من الآن واجهات المكتبات: «بريتكستا طاش الحائز على جائزة نوبل قاتل» وستباع كتبي كالأرغفة الصغيرة. وسيفركِ ناشرو كتبي أيديهم من الفرح. صدقيني ستكون جريمة القتل هذه مسألة مربحة للجميع.

- حتى لليوبولدين؟

- خصوصاً لليوبولدين.

- لنعد إلى 1922.

- لماذا ليس إلى 1925؟

- أنت تتعجل. لا ينبغي إغفال السنوات الثلاث هذه. إنها هامة جداً.

- صحيح، إن هذه السنوات هامة جداً. لذا يتعذر رواية أي شيء عنها.

- ولكنك تحدثت عنها رغم ذلك.

- لا نلعب بالكلمات، إذا سمحت.

- هل تقولين هذا لكاتب؟

- أنا لا أتكلم مع الكاتب، وإنما مع القاتل.

- إنه الشخص نفسه.

- هل أنت متأكد من ذلك؟

- كاتب، قاتل، وجهان للمهنة ذاتها، تصريفان للفعل نفسه.

- أي فعل؟

- الفعل الأكثر ندرة وصعوبة: فعل أحب، أليس من المُسلّي أن نحونا المدرسي اختار كنموذج، الفعل الذي معناه هو الأشد غموضاً؟ لو كنت معلّماً لأبدلت هذا الفعل الباطني بفعل سهل الفهم.

- قتل؟

- فعل قتل ليس سهلاً هو الآخر. لا. كنت أبدلته بفعل مبتذل وشائع مثل فعل صوَّت، ولد، حاور، عمل..

- حمداً للرب أنكِ لست معلّماً. هل تعرف أن من الصعب جداً دفعك للإجابة عن سؤال؟ لديك موهبة الإفلات، وتحويل

الموضوع. والذهاب في كل اتجاه. يجب أن يتم تذكيرك دوماً بضرورة العودة إلى الموضوع.

- أنا أطري نفسي على ذلك.

- ولكنك هذه المرة، لن تفلت أبداً: 1922 - 1925 أعطيك الكلمة.

صمت ثقيل.

- تريدين كاراميلا؟

- سيد طاش، لماذا ترتاب بي؟

- لست مرتاباً بك. بكل حُسن نية لا أدري ما يمكن أن أقوله لك. كنا سعيدان جداً، وكنا متحابين بتفانٍ. ماذا يمكن أن أقول لك سوى ترهات من هذا القبيل؟

- سأساعدك

- لذا أنتظر الأسوأ.

- منذ أربع وعشرين سنة. وبسبب نضوب قريحتك الإبداعية، تركت رواية غير مكتملة. لماذا؟

- قلت هذا لأحد زملائك. كل كاتب يحترم نفسه ينبغي أن يترك رواية واحدة على الأقل غير مكتملة، وإلا فلن تكون له مصداقية.

- أتعرف أنت، كتّاباً كثراً نشروا خلال حياتهم روايات غير مكتملة؟

- لا أعرف أحداً. أنا بدون شك أذكى من الآخرين: أتلقى وأنا حي ضروباً من الاحتفاء والتكريم لا يتلقاها الكتّاب العاديون

إلا بعد وفاتهم. رواية غير مكتملة لكاتب مبتدئ هو عمل يشي بالرعونة. بفتوة غير منضبطة. أما بالنسبة لكاتب كبير معترف به فهي ذروة الأناقة. هي: «عبقرية توقفت خلال اندفاعها» «أزمة قلق عاشها جبار» «انبهار حيال ما يعز على الوصف» «رؤية ميلارمية للكتاب القادم» بإيجاز، الأمر مجزٍ.

- سيد طاش. أعتقد أنك لم تفهم سؤالي، أنا لا أسألك لماذا تركت رواية ما غير مكتملة. وإنما لماذا تركت هذه الرواية غير مكتملة؟

- حسن، خلال الكتابة، تبينت بأنني لم أبضْ بعد الرواية غير المكتملة الضرورية لشهرتي. ألقيت نظرة على المخطوط وفكرت: «لماذا لا تكون هي هذه الرواية؟» لذا وضعت القلم ولم أضف سطراً واحداً.

- لا تأمل في أن أصدقك.

- لماذا لا تصدقينني.

- تقول «وضعت القلم ولم أضف سطراً واحداً» كان يجدر بك القول «وضعت القلم ولم أكتب أبداً سطراً واحداً» أليس مثيراً للدهشة، بعد هذ الرواية غير المكتملة، أنك توقفت نهائياً عن الكتابة، أنت الذي كتبت كل يوم طيلة ست وثلاثين سنة.

- كان يجب أن أتوقف في يوم ما.

- نعم، ولكن لماذا توقفت في هذا اليوم بالذات؟

- لا تبحثي عن معنى خفي لحادث عادي جداً مثله مثل الشيخوخة. كان لدي من العمر تسع وخمسون سنة، بلغت

تقاعدي، هل هناك شيء عادي أكثر من هذا؟

- بين ليلة وضحاها. ولا سطر واحد.. ألا تكون الشيخوخة قد سقطت عليك في يوم واحد؟

- ولم لا. نحن نشيخ كل يوم. يمكن أن نعيش عشر سنوات، عشرين سنة دون أن نشيخ. وفجأة، ومن دون سبب معين يمكن الخضوع لوطأة عشرين سنة في ساعتين، سترين. سيحدث هذا لك أيضاً. في ليلة ما. ستشاهدين نفسك في مرآة وستفكرين: «يا إلهي، لقد كبرت عشر سنوات منذ هذا الصباح».

- دون سبب محدد، حقاً؟

- دون سبب ما عدا الزمن الذي يقود كل شيء إلى الضياع.

- الزمن، مطيّة صالحة، سيد طاش. وقد أعطيته مساعدة جدية بيدك، بيديك!..

- اليد مقر غطبة الكاتب.

- اليد مقر غبطة الخانق.

- الخنق شيء جميل جداً في الواقع.

- للخانق أو للمخنوق؟

- واأسفاه. لم أعرف أبداً إلا إحدى الوضعيتين.

- لا تيأس.

- ماذا تريدين القول؟

- لا أعرف. أنت تفقدني صوابي بتحولاتك. حدثني عن هذا الكتاب الناقص، سيد طاش.

- لا، آنستي، عليك أنت القيام بذلك.

- من كل ما كتبته، أنا أفضّل ذلك الكتاب فقط.

- لماذا؟ لأن هناك قصر، ونبلاء وقصّة حب؟ أنت حقاً امرأة.

- أحب قصص الحب، هذا صحيح. يحدث أن أفكر دائماً بأنه خارج الحب لا شيء يثير الاهتمام.

- برب السماء.

- اسخر كما تشاء. لكنك لن تستطيع إنكار أنك أنت الذي كتبت هذا الكتاب وهو يتضمن قصة حب.

- ما دمت قلت ذلك.

- زد على ذلك، أنها قصة الحب الوحيدة التي لم تكتب غيرها أبداً.

- أنت تطمئنينني.

- أعيد طرح السؤال، سيدي العزيز. لماذا تركت هذا الكتاب غير مكتمل؟

- عطل في الخيال، ربما.

- خيال. لست في حاجة للخيال لكتابة هذا الكتاب. كنت تروي وقائع حقيقية.

- ماذا تعرفين عن ذلك؟ لم تكوني هناك لتتأكدي من الوقائع.

- أقتلت ليوبولدين أم لا؟

- نعم. لكن هذا لا يثبت أن ما تبقى حقيقي. الباقي أدب، آنستي.

- حسناً، أنا أعتقد أن كل شيء حقيقي في هذا الكتاب.

- إذا كان هذا يرضيك.

- بعيداً عن الإرضاء. لدي أسباب وجيهة لأعتقد بأن هذه الرواية سيرة ذاتية بوجه الضبط.

- أسباب وجيهة؟ اشرحي لي، لكي أضحك قليلاً.

- لقد أكد الأرشيف وجود القصر الذي أعطيته أوصافاً دقيقة. وأعطيت للشخصيات الأسماء نفسها التي لها في الواقع. باستثنائك أنت بالتأكيد. لكن فيليمون طراكتيس اسم مستعار شفاف، الحروف الأولى تثبت هذا. والسجلات تشهد بأن ليوبولدين توفيت في عام 1925؟

- أرشيف وسجلات. هذا ما تسميه واقع؟

- لا، ولكنك إذا ما احترمت هذه الوقائع الرسمية، فسأتمكن بنحو معقول من أن أستخلص بأنك احترمت أيضاً وقائع أكثر سرية.

- حجة ضعيفة.

- لدي حجج أخرى: الأسلوب مثلاً، إنه أسلوب أقل تجريداً، من أسلوبك في الروايات السابقة.

- حجة أكثر ضعفاً هي الأخرى: لن يكون للانطباعية التي تحل لديك محل الحسّ النقدي قيمة إثبات وخصوصاً في مجال الأسلوب. إن الأرقّاء من نوعك لا يضلون الطريق مثلما تضلين حين يتعلق الأمر بأسلوب كاتب.

- أخيراً، لدي حجة دامغة جداً إلى حد أنها يمكن أن لا تعتبر حجة.

- ماذا تعنين بهذا؟

- ليست حجة. إنها صورة فوتوغرافية.

- صورة فوتوغرافية؟ لمن؟

- أنت تعرف لماذا لم يشك أحد قط في أن هذه الرواية كانت سيرة ذاتية؟ لأن الشخصية الرئيسية فيليمون تراكتاتيس كان فتى رائعاً رشيقاً ومحبوباً، لم تكذب حين قلت لزملائي بأنك صرت قبيحاً وبديناً منذ الثامنة عشرة. لنقل بأنك كذبت سهواً لأنك طيلة كل السنوات السابقة كنت جميلاً بنحو مبهر.

- ماذا تعرفين عن ذلك؟

- وجدت صورة.

- هذا مستحيل. لم تُلتقط لي أبداً صورة قبل عام 1948.

- آسفة يبدو أن ذاكرتك ضعيفة، وجدت صورة كتب على ظهرها بقلم رصاص «سانت - سلبيس 1925».

- أرينيها.

- سأظهرها لك حين أتيقن من أنك لا تريد تمزيقها.

- أنا متأكد بأنك تكذبين.

- أنا لا أكذب. لقد حججت إلى سانت - سلبيس. وأنا آسفة لإخبارك بأنه في موقع القصر القديم والذي لم يتبقّ منه شيء بُنيت تعاونية فلاحية. أغلب البحيرات تم طمرها، وحُوِّل الوادي إلى مكان عام للنفايات، آسفة. إنك لا توحي لي بأي شفقة. سألت هناك كل المسنين الذين صادفتهم، كانوا ما يزالون يتذكرون قصر ماركيزات دوبلانيز دو سانت - سلبيس. ويتذكرون حتى اليتيم الصغير الذي تبنّاه جداه.

- أتساءل كيف يمكن أن يتذكرني هؤلاء الناس. ولم يكن لي أي صلة بهم.

- هناك عدة أنواع للاتصال. ربما لم يكلموك أبداً، لكنهم كانوا يرونك.

- مستحيل. لم أكن أضع رجلي خارج الملكية.

- لكن أناساً كانوا يزورون جديك، وخالتك وخالك.

- لم يكونوا يلتقطون صوراً أبداً.

- أنت مخطئ، اسمع. لا أعرف في أي ظروف التُقطت هذه الصورة، ولا من التقطها - تفسيراتي لم تكن سوى فرضيات فقط - لكن المؤكد هو أن هذه الصورة موجودة. وأنت فيها برفقة ليوبولدين أمام القصر.

- مع ليوبولدين؟

- طفلة جميلة بشعر داكن، لن تكون إلا هي.

- أريني الصورة.

- ماذا ستفعل بها؟

- أريني الصورة. قلت لك.

- أعطتها لي امرأة عجوز من القرية. لا أعرف كيف وصلت الصورة إلى يديها، لا يهمّ، لا مجال للشك في هوية الطفلين. طفلان، نعم، حتى وأنت في سن السابعة عشرة، لا ترى فيك أي علامة من علامات المراهقة. هذا غريب جداً. كنتما كبيران، نحيفان، شاحبان. لكن وجهيكما وجسديكما الطويلين طفوليين تماماً. لم يكن يبدو عليكما بأنكما عاديين. حتى ليمكن القول

بأنكما عملاقين في سن الاثنتي عشرة. وكانت النتيجة رغم ذلك مدهشة: الملامح الرقيقة، العيون الساذجة، تلك السحنتين الصغيرتين جداً إذا قورنت بالجمجمتين، واللتين تعلوا جذعين طفليين، وسيقاناً نحيفة وطويلة جداً. كنتما صالحين للرسم. ويُعتقد أيضاً بأن وصفاتك الهذيانية للوقاية الصحية كانت فعالة وأن نبات فقع الذئب سر من أسرار الجمال. والمثير للدهشة أكثر هو أنت، من الصعب التعرف عليك.

- إذا كنت غير معروف في الصورة، فكيف عرفت بأنني أنا؟

- لا أرى أحداً يمكن أن يكون مكانك، ثم إنك قد احتفظت بنفس البشرة البيضاء الملساء المرداء - إنها الشيء الوحيد الذي احتفظت به. كنت جميلاً جداً، كانت تقاسيمك نقية جداً وأعضاؤك دقيقة للغاية. بنية خنثوية جداً - لن تكون مختلفة جداً عن صور الملائكة.

- وفّري عليّ ورَعَك. وأريني هذه الصورة، بدل أن تقولي أي شيء.

- كيف تمكّنت من أن تتغير كل هذا التغيير؟ تقول إنك منذ الثامنة عشرة كنت مثلما أنت الآن وقبلت تصديقك. لكن في هذه الحالة ستكون الدهشة أعظم. كيف تمكّنت في أقل من سنة. من تبديل مظهرك الملائكي بالتورم الفظيع الذي أراه الآن؟ فأنت ضاعفت وزنك ثلاثة أضعاف، ووجهك الرقيق جداً صار شبيهاً بوجه بقرة، وتقاسيمك الرهيفة انتفخت حتى صارت تبدي كل سِمات السوقية.

- هل ستنتهين من شتمي قريباً؟

- تعرف جداً بأنك قبيح. ثم إنك لا تكف عن وصف نفسك بأقبح النعوت.

- أنا أشتم نفسي بما يكفي من حميّة، لكنني لا أقبل أن يشتمني شخص آخر، هل هذا واضح؟ أرأيت؟

- لم أفعل ذلك إلا بإذنك، أنت قبيح. هذا كل ما في الأمر، ولا يمكن تصديق أن يغدو الإنسان منفراً جداً بعد أن كان جميلاً جداً.

- ليس في الأمر ما لا يُصدق. فهذا يحدث باستمرار ولكن عادة ما لا يكون الأمر بمثل هذه السرعة.

- هوذا. بدأت مرة أخرى في البوح باعترافات.

- أليس كذلك؟

- نعم، بقولك هذا، تكون قد اعترفت بنحو ضمني بصدقية أقوالي. في السابعة عشرة كنت بالفعل كما وصفتك تماماً، وكما لم تخلدك أبداً أية صورة فوتوغرافية للأسف.

- كنت أعرف هذا، لكن كيف تمكنت من وصفي بشكل جيد جداً.

- اكتفيت بعرض الأوصاف التي أعطيتها لفيليمون تراكتاتيس في روايتك. كنت أريد أن أدقق فيما إذا كنت كما وصفت شخصيتك الروائية تلك. ولكي أعرف ذلك لم يكن هناك من سبيل سوى الخداع. ما دمت ترفض الجواب على أسئلتي.

- أنت فضولية صغيرة وقذرة.

- فضولية، أنا موافقة. غير أني أعرف الآن بيقين تام بأن روايتك هي سيرة ذاتية صرفة، ولدي كل الأسباب لأكون فخورة ما دمت أمتلك العناصر نفسها التي يمتلكها أي من الناس، ولكنني كنت الوحيدة التي شممت فيها الحقيقة.

- هذا صحيح، مجّدي نفسك إذن.

- افهم. أعيد طرح سؤالي الأول. لماذا كانت **القواعد الصحية للقاتل** رواية غير تامة؟

- ها هوذا عنواننا الناقص منذ حين.

- لا طائل من تمثيل دور المندهش. لن أتوقف عن مطالبتك بالجواب: لماذا كانت هذه الرواية غير تامة؟

- يمكن أن نطرح السؤال بطريقة أكثر ميتافيزيقية: لماذا عدم الاكتمال هذا يشكّل رواية؟

- ميتافيزيقاك لا تهمني. أجب عن سؤالي: لماذا كانت هذه الرواية غير تامة؟

- هيا أنت تزعجينني. لماذا لا يكون لهذه الرواية الحق في أن تكون غير تامة؟

- لا علاقة للحق بهذه الحكاية. لقد وضعت أحداثاً واقعية بنهاية واقعية. لماذا إذن لم تكمل الرواية؟ بعد قتل ليوبولدين توقفت وسط الفراغ. هل كان من الصعب إنهاء العمل، ووضع نهاية لائقة له؟

- هذا صعب! اعلمي أيتها الدجاجة الرومية الصغيرة بأنه ما من شيء يصعب كتابته على بريتكستا طاش.

- بالتحديد. فهذه اللانهاية عبثية بالأحرى.

- من أنت لتحددي عبثية قراراتي؟

- أنا لا أحدد أي شيء، أنا أتساءل؟

فجأة اكتسى العجوز مظهر شيخ هرم في سن الرابعة والثمانين من عمره.

- لست وحدك من تتساءلين. أنا أيضاً أتساءل ولا أجد جواباً. كان بإمكاني أن أختار لهذا الكتاب نهاية من بين دزينة من النهايات: إما القتل نفسه وإما الليلة التي تلته، وإما تحوّلي الفيزيقي، وإما حريق القصر بعد سنة من ذلك.

- ذلك الحريق كان من صنيعك، أليس كذلك؟

- طبعاً، صارت سانت - سلبيس لا تطاق بدون ليوبولدين. ثم بدأ ارتياب العائلة بمسؤوليتي عن مقتل ليوبولدين يغيظني. فقررت إذن التخلص من القصر ومن ساكنيه. ولم أتصور بأنه سيحترق على النحو الرائع الذي حدث.

- بالطبع، ليس احترام حياة الناس هي ما يخنقك. ولكن ألم تشعر بالتردد حين أحرقت قصراً يعود للقرن السابع عشر؟

- لم يكن التردد أبداً من نقاط قوتي.

- نعم. لنعد إلى النهاية التي نحن بصددها، أو بالأحرى إلى غياب النهاية، أنت على هذا النحو تزعم جهل السبب في عدم الاكتمال هذا؟

- هنا، يمكنك أن تصدقيني. نعم. عشت حيرة في اختيار نهاية من بين نهايات أنيقة، لكن ما من واحدة بدت لي ملائمة. لا

أعرف، بدا الأمر وكأني أنتظر شيئاً آخر وأنني أنتظره دائماً منذ أربع وعشرين سنة. أو منذ ست وستين سنة إن شئت.

- ما هو هذا الشيء الآخر الذي تنتظره؟ انبعاث ليوبولدين؟

- لو كنت أعرف ذلك لما توقفت عن الكتابة.

- كنت على حق إذن في ربط عدم اكتمال هذه الرواية بنضوب معينك الأدبي الشهير.

- كنت على حق بالتأكيد. ليس ثمة ما يدعو إلى الفخر أن نكون على حق، حين نمتهن الصحافة، فإن هذا لا يحتاج إلا إلى قليل من المكر. أما حين نكون كتّاباً فلا يوجد شيء من هذا، مهنتك منفرة بسهولتها، أما مهنتي فخطيرة.

- أنت تعمل بشكل أو آخر على أن تكون أكثر خطورة.

- إلى ماذا يلمّح هذا الإطراء الغريب؟

- لا أعرف إن كان هذا إطراء أم لا، ولا أعرف إذا كان ينبغي أن نجد اعترافك في الرواية مثيراً للإعجاب أو جنونياً. هل يمكنك أن تشرح لي الدافع الذي دفعك في اليوم الذي قررت فيه أن تروي بأمانة القصة التي ليست فقط هي الأعز على نفسك بل وأيضاً الأشد مجازفة في استدعائك إلى المحاكم؟ لأي ضلال غامض استسلمت حين قدَّمت للبشرية بقلمك الجميل صكّ اتهامك لنفسك، وبشفافية صارخة؟

- لكن البشرية لا تعبأ بهذا، والدليل أنه منذ أربع وعشرين عاماً وهذه الرواية تجول في المكتبات وما من أحد، هل تسمعينني؟ ما من أحد حدثني عنها إطلاقاً، هذا طبيعي جداً، ما

دام أنه ما من أحد، مثلما قلت لك كان قد قرأها.

- وأنا؟

- أنت كمّ تافه دونما أهمية.

- ما هو دليلك على عدم وجود كميات تافهة أخرى شبيهة بي؟

- لدي حجة دامغة: لو كان هناك من قرأني غيرك - أقول قرأني، بالمعنى الضاري للكلمة - لكنت في السجن منذ زمن طويل. أنت تطرحين عليّ سؤالاً مهماً لكنني أندهش لأن الجواب لم يخطر لك أبداً. هوذا إذن قاتل هارب منذ اثنتين وأربعين سنة. وما تزال جرائمه مجهولة، وقد صار كاتباً مشهوراً. وبعيداً عن الرضى بمثل هذا الوضع المريح، فإن هذا المريض مندفع في رهان عبثي ما دام سيخسر كل شيء، وما من شيء سيربحه سوى إثبات هزلي رفيع القيمة.

- دعني أخمّن. هو يريد أن يبرهن بأنه ما من أحد قرأه.

- إليك ما هو أفضل من هذا: إنه يريد أن يبرهن بأنه حتى القراء النادرون الذين يقرأونه، وهؤلاء موجودون بالطبع، فهم سيقرأونه من دون قراءته.

- هذا واضح جداً.

- ولكن بلى، أنت تعرفين أن هناك دائماً حفنة من العاطلين، والنباتيين، والنقّاد المماحكين والطلبة المازوخيين، وأيضاً بعض الفضوليين، الذين يذهبون إلى حد قراءة الكتب التي يشترونها. هؤلاء الناس هم من أردت اختبارهم. كنت أريد أن أثبت بأنني

قادر وبلا عقاب على أن أكتب أسوأ الفظاعات عن نفسي: فصكّ الاتهام الذاتي كما وصفته بدقة كان صادقاً. نعم، آنستي أنت على حق، من البداية حتى النهاية: ليس هناك جزئية واحدة متخيلة في هذا الكتاب. يمكن بالتأكيد إيجاد أعذار للقارئ. إذ لا أحد يعرف أي شيء عن طفولتي، وليس هذا هو الكتاب الفظيع الأول الذي أكتبه، كيف يمكن لأحد أن يتصور بأنني كنت جميلاً جمالاً إلهياً. إلخ. لكنني أؤكد، بأن هذه الأعذار لا سَنَد لها، أتعرفين النقد الذي قرأته في إحدى الصحف، منذ أربع وعشرين سنة. والمتعلق بالاحتياطات الصحية للقاتل؟ «حكاية جنيات غنية بالرموز، استعارة حالمة للخطيئة الأصلية وغير ذلك» فحين كنت أقول لك بأنهم يقرأونني من دون أن يقرأوا لي فإن بإمكاني أن أكتب الحقائق الأشد مجازفة، ولن يروا فيها أبداً إلا استعارات. وهذا لا يثير الدهشة: فشبه القارئ المدرع داخل غواصته تمر عليه جملي الدامية من دون أن يتسرب إليه أي شيء منها. ومن حين لآخر، يصيح فرحاً «ما أجمله من رمز» هذا ما يسمى القراءة الخاصة، اختراع عجيب وممتع جداً يمارس في السرير قبل النوم. اختراع مهدئ ولا يلوث الملاءات.

- وماذا كنت ستفضل؟ أن يقرأك الناس في مسلخ، أو في بغداد إبان القصف؟

- ولكن لا أيتها الحمقاء. ليس مكان القراءة ما أعنيه، إنها القراءة نفسها. تمنيت أن أقرأ دون ثياب رجال الضفادع، دون شباك قراءة، دون لقاح، أو بالأحرى دون حِرَفية.

- كان عليك أن تعلم بأن هذه القراءة غير موجودة.

- لم أكن أعرف هذا منذ البداية ولكنني الآن، على ضوء استنتاجي الباهر صدقيني، عرفته جيداً.

- وإذن؟ أليس تعدد القراءات وتعدد القراء مدعاة للفرح؟

- لم تفهميني. ليس هناك قراء وليست هناك قراءات.

- ولكن بلى. هناك قراءات مختلفة عن قراءتك، هذا كل ما في الأمر. لماذا ستكون قراءتك هي الوحيدة المقبولة؟

- أوه، حسناً، توقفي عن استظهار كتابك المدرسي حول السوسيولوجيا، ثم إنني أحب أن أعرف ماذا سيجد كتابك السوسيولوجي ليقوله حول وضعية البناء الذي شيّدته. كاتب - قالت يفضح نفسه علانية ولا أحد من القراء امتلك قدراً من الذكاء ليدرك ذلك.

- أنا لا أكترث بالآراء السوسيولوجية وأعتقد بأن القارئ ليس شُرطياً، وإذا حصل أن أحداً من القراء لم يسعَ إلى إزعاجك بعد صدور الكتاب، فهذه إشارة طيبة. هذا يعني أن **فوكيي - تانفيل**[1] لم يعد دارجاً وأن الناس صاروا منفتحين وقادرين على قراءة راقية.

- نعم، فهمت، أنت متعفنة مثل الآخرين. كنت غبياً حين اعتقدت أنك مختلفة عن الجمهور.

---

(1) فوكيي دوتانفيل (1746 - 1796)، رجل قانون وثائر فرنسي شغل منصب المدعي العام للثورة الفرنسية.

- من المؤكد للأسف بأنني لست كذلك على الإطلاق. بما أنني الوحيدة من نوعي التي شممت الحقيقة.

- لنقبل بأنك لا تعدمين حاسة الشم. هذا كل ما في الأمر، ولكن ها أنت ترين، أنت تخيبيني.

- يكاد يكون هذا مجاملة. عليّ أن أفهم بأنني في بضع لحظات استطعت أن أوحي إليك برأي أفضل تجاهي.

- ستضحكين: نعم. أنت لم تتخلصي من الفجاجة الإنسانية لكن لك ميزة نادرة.

- أتحرّق شوقاً لمعرفتها.

- أعتقد أنها ميزة فطرية، وألاحظ بارتياح بأن مظاهرك البليدة لم تنجح في إفسادها.

- ما هي إذن هذه الميزة؟

- أنت على الأقل تعرفين كيف تقرئين.

صمت

- كم هو عمرك آنستي.

- ثلاثون سنة.

- إنه ضعف عمر ليوبولدين لحظة موتها. هذا يا صغيرتي البائسة هو ظرف التخفيف بالنسبة لك، لقد عشت أطول مما يجب.

- كيف! هل أنا من أحتاج إلى ظرف تخفيف؟ العالم بالمقلوب.

- افهمي بأنني أبحث عن تفسير: أمامي شخص بذهن ثاقب.

ويتمتع بمَلَكة قراءة نادرة. لذا فأنا أتساءل ما الذي لوث هذه المَلَكات الجميلة؟ لقد أعطيتني الآن الجواب: الزمن، ثلاثون سنة، هذا كثير جداً.

- أنت، في سنك من يقول لي هذا!!

- أنا ميت في سن السابعة عشرة آنستي. ومن ثم فإن الأمر مختلف بالنسبة للرجال.

- ها نحن من جديد.

- لا داعي لاتخاذ مظهر ساخر، يا صغيرتي، تعرفين جيداً بأنها الحقيقة.

- ما هي الحقيقة؟ أريد أن أسمعك تقولها بوضوح.

- تباً لك، حسناً اسمعي. للرجال الحق في كل حالات وقف التنفيذ ولا يحق ذلك للنساء. حول هذه النقطة أنا أشد وضوحاً وصراحة من الآخرين: إن معظم الذكور يتركون للإناث مهلة أطول أو أقصر قبل نسيانهن. وهذا أشد نذالة من قتلهن. أنا أجد هذه المهلة عبثية ومخادعة تجاه النساء: فبسبب هذا المهلة يتخيلن بأننا في حاجة إليهن. والحقيقة أنه منذ اللحظة التي صرن فيها نساء. منذ اللحظة التي يغادرن فيها الطفولة ينبغي أن يَمُتْن. لو امتلك الرجال صفة الكياسة لقتلوهن يوم نزول أول قطرات دم الحيض، لكن الرجال لم يكونوا أبداً لَبِقِين، فهم يفضلون ترك هؤلاء التعيسات ينتقلن من معاناة إلى معاناة بدل أن يمتلكوا الطيبة لقتلهن. لم أعرف إلا ذكراً واحداً كانت له العظمة والاحترام والحب، والصدق والظرافة كي يفعل ذلك.

- إنه أنت.

- بالضبط.

ردت الصحفية رأسها إلى الخلف. وغرقت في ضحك منقطع، أبح، ثم تسارع ضحكها شيئاً فشيئاً متسلقاً الأوكتافات النغمية مع كل إيقاع جديد إلى أن مال ضحكها إلى إيقاع السلم الخامس المتواصل، الخانق. كان ضحكاً مجنوناً بالمعنى الكلينيكي.

- هل هذا يضحك؟

- ....

لم يترك لها ضحكها المتواصل إمكانية الكلام.

- هذا الضحك الجنوني، إنه أيضاً مرض نسائي. لم أرَ أبداً رجلاً يتلوّى من الضحك كما تفعل النساء في هذه الحالات. هذا يتأتى ربما من الرحم. جميع قذارات الحياة تتأتى من الرحم. ليس للفتيات الصغيرات أرحام كما أعتقد، وإذا كان لهن واحد فهو لعبة. محاكاة ساخرة للرحم، وحينما يغدو الرحم الكاذب حقيقة فينبغي قتل الصغيرات لتجنيبهن مرض الهستيريا المقيتة والمؤلمة التي أنت ضحيتها الآن.

- آه..

كانت هذه «الآه» تصدر من أعماق بطن مرهق، وهو يهتز بفعل تشنجات مرضية.

- الصغيرة المسكينة، لقد كانوا قساة معك. من هو هذا الوغد الذي لم يقتلك حين بلغت سن البلوغ؟ ولكن ربما، لم يكن لك

صديق حقيقي في تلك المرحلة للأسف. أخشى أن تكون ليوبولدين هي وحدها مَنْ حالَفَها الحظ.

- توقف. لم أعد أحتمل.

- أتفهّم رد فعلك. الاكتشاف المتأخر للحقيقة، والشعور المفاجئ بخيبة الأمل. لا شك أنها صدمة قوية. ورحمك مشغول بتلقي إحدى تلك الضربات! أنثاي الصغيرة البائسة! مخلوقتي المسكنية التي حافظ الذكور بنذالة على حياتها. صدقيني، أنا أشفق عليك.

- سيد طاش، أنت الشخص الأكثر إثارةً للذهول، والأكثر إضحاكاً من بين الذين قُيِّض لي أن ألتقي بهم.

- غريب؟ أنا لا أفهم.

- أنا معجب بك. لأنك استطعت ابتكار نظرية بمثل هذه الحماقة وهذا التناسق، هذا عجيب، اعتقدت في البداية بأنك ستروي لي ترهات ذكورية شائعة. لكنني أسأت تقديرك. فشرحك هائل وحاذق في الوقت نفسه. ينبغي ببساطة إبادة النساء، أليس كذلك؟

- بالطبع. لو لم توجد النساء؛ فإن الأمور في النهاية ستسير في صالحهن.

- هذا الحل عبقري جداً، كيف لم يفكر به أحد من قبل؟

- برأيي. لقد فكر بعضهم من قبل في هذا؛ ولكن لا أحد قبلي امتلك شجاعة تنفيذ المشروع؛ لأن هذه الفكرة في النهاية في متناول الجميع. الحركة النسائية والحركة المعادية للنساء هما

جرحا الجنس البشري. والدواء بديهي، بسيط، منطقي، يجب القضاء على النساء.

- سيد طاش. أنت عبقري. أنا معجبة بك ومعتزة بمعرفتك.

- سأدهشك أكثر. أنا أيضاً مسرور بمعرفتك.

- أنت لا تتكلم بنحو جدّي.

- على العكس. في البداية، أنت معجبة بي بسبب ما أنا عليه لا بسبب ما تتخيلينه عني، وهذه نقطة إيجابية. ثم إنني أعلم أنه باستطاعتي تقديم خدمة كبيرة لك، وهذا يشرفني.

- أي خدمة؟

- كيف، أي خدمة؟ أنت تعرفينها.

- هل عليّ أن أفهم بأنك تنوي تصفيتي أنا أيضاً؟

- بدأت أفكر بأنك جديرة بذلك.

- هذا إطراء كبير سيد طاش. وصدقني بأنني مرتبكة لذلك؛ ولكن.

- أراك بالفعل محمرّة.

- لكن لا تكلف نفسك هذا العناء.

- لماذا؟ أعتقد أنك تستحقين ذلك. أنت أفضل مما خُيّل إليّ في البداية. لدي الرغبة في مساعدتك على الموت.

- أنا متأثرة لهذا، لكن لا تفعل شيئاً، لا أريد أن أخلق لك متاعب بسببي.

- هيا صغيرتي، لا خطر علي، لم يتبقّ لي إلا شهر ونصف في هذه الحياة.

- لا أريد لسمعتك بعد الموت أن تُلوَّث بسببي.

- لماذا ستتلوث بهذا الفعل الطيب؟ على العكس. سيقول الناس «قبل أقل من شهرين على وفاته، قام بريتكستا طاش أيضاً بعمل خير» سأكون مثالاً يُحتذى للبشرية.

- سيد طاش. البشرية لن تفهم.

- مع الأسف. أخاف أن لا تكوني على حق مرة أخرى. ولكن البشرية وسُمعتي لا تهماني كثيراً. اعلمي آنستي. أنا أقدّرك إلى درجة أني رغبت من أجلك وحدك في القيام بعمل طيب ونزيه.

- أعتقد أنك تبالغ كثيراً في تقديرك.

- لا أعتقد ذلك.

- افتح عينيك، سيد طاش. ألم تقل بأني قبيحة بلهاء، عفنة وأكتفي بهذا؟ ومجرد كوني امرأة فقط لا يكفي ليفقدني الاعتبار؟

- نظرياً، كل ما قلته صحيح. لكن حدث شيء غريب، يا آنستي، النظرية لا تكفي، أنا بصدد أن أعيش بُعداً آخر للمشكلة. وأحس بمشاعر لذيذة، لم أعرفها منذ ست وستين سنة.

- افتح عينيك، سيّد طاش، لست ليوبولدين.

- لا. ورغم ذلك لست غريبة عنها.

- كانت هي جميلة مثل النهار وأنت تجدني قبيحة.

- لم يعد هذا حقيقة تماماً. لا يخلو قبحك من جمال، في بضع لحظات، تكونين جميلة.

- في بضع لحظات.

- هذه اللحظات، آنستي، شيء كثير.

- أنت تجدني غبية، ولا يمكنك أن تحترمني.

- لماذا هذا الإصرار على الحط من قدرك؟

- لسبب بسيط، أنا أحرص على أن لا أنتهي مقتولة من طرف حائز على جائزة نوبل للآداب.

وبدا على البدين فجأة مسحة برود.

- تفضلين ربما حائزاً على جائزة نوبل في الكيمياء؟ سألها بصوت بارد.

- هذا مضحك جداً. بل أنا أحرص على أن لا أنتهي مقتولة، أفهمت؟ سواء من طرف حائز على جائزة نوبل أو من طرف بقّال.

- أعليّ أن أفهم بأنك تريدين وضع حد لحياتك بنفسك؟

- لو كانت لدي ميول انتحارية، سيد طاش، لفعلت ذلك منذ زمن طويل.

- هكذا إذن، تعتقدين ربما أن الأمر سهل جداً؟

- لا أعتقد شيئاً. هذا لا يعنيني. تصور بأنه ليس لدي أي رغبة في الموت.

- أنت لا تتكلمين على نحو جدي؟

- هل صارت الرغبة في الحياة إذن ضلالاً إلى هذا الحد؟

- ليس هناك ما يحمد أكثر من الرغبة في الحياة، لكنك لا تعيشين، يا دجاجتي الرومية الصغيرة البائسة، وأنت لن تعيشي أبداً! أتجلهين بأن البنات يمُتنَ يوم إدراكهن سن البلوغ؟ والأنكى، أنهنّ يمتنَ دون أن يختفين. يهجرن الحياة لا ليلتحقن

بضفاف الموت، وإنما ليبدأن في تصريف مضنٍ وتافه لفعل مبتذل وقذر، ولا يبرحن يصرفنه في كل الأزمنة وكل الصيغ. ويفكّكنه، ويركّبنه، ولا يفلتن أبداً منه.

- ما هو هذا الفعل إذن؟

- شيء من قبيل «أنتج ولد» بالمعنى القذر للكلمة - فعل باض إن شئت. إنه ليس الموت، ولا الحياة، ولا هو في منزلة بينهما - وهو لا يُسمّى باسم آخر سوى أن يكون الإنسان امرأة، فالمعجم، وبدون شك، وبسوء نيته المعهودة أراد أن يتجنب تسمية هكذا دناءة.

- باسم ماذا تدّعي معرفة ما تعنيه حياة امرأة؟

- باسم لا حياة - المرأة.

- حياة أو لا حياة، أنت لا تعرف شيئاً.

- اعلمي آنستي، بأن للكتّاب الكبار مدخلاً مباشراً وفوق طبيعي إلى حياة الآخرين. وليسوا في حاجة للقيام بالتقليب أو بالتنقيب في الأرشيف للنفاذ إلى العالم الذهني للأشخاص. يكفيهم تناول ورق وقلم لرسم أفكار الآخرين.

- أترى الأمر هكذا، عزيزي، أعتقد أن نظريتك فاشلة، إذا حكمت عليها انطلاقاً من استخلاصاتك الحمقاء.

- حمقاء مسكينة. ما الذي تريدين أن أبلعه؟ وبالأحرى ما الذي تحاولين أن تبلعيه أنت؟ بأنك سعيدة؟ هناك حدود لإقناع الذات؟ افتحي عينيك! أنت لست سعيدة. وأنت لا تحيين.

- وماذا تعرف أنت؟

- أنا أطرح عليك السؤال. كيف يمكنك أن تعرفي إن كنت تحيين أم لا؟ وإن كنت سعيدة أم لا؟ أنت لا تعرفين حتى ما هي السعادة. لو أمضيت طفولتك في جنة أرضية. مثلي أنا وليوبولدين..

- آه. هكذا، توقف عن اعتبار حالتك استثنائية. كل الأطفال سعداء.

- لست متأكداً من هذا. ما هو مؤكد، هو أنه ما من طفل كان أكثر سعادة أبداً من ليوبولدين الصغيرة وبريتكستا الصغير.

انكفأ رأس الصحفية إلى الخلف مجدداً وبدأ الضحك مجدداً، وبنحو مزعج.

- ها هو رحمك يعاود تأثيره. حسناً، ما المضحك في ما قلته؟

- اعذرني. المضحك هو هذه الأسماء، وخصوصاً اسمك.

- وإذن؟ هل لك مأخذ على اسمي؟

- مأخذ؟ لا. لكن أن يسمى المرء بريتكستا! فأنا أقسم أن هذا الاسم بالمزحة. أتساءل عما خطر لذهن أبويك في اليوم الذي قررا فيه تسميتك بهذا الاسم.

- أمنعك من الحديث عن والديّ والحكم عليهما. ولا أرى بصراحة وجه الغرابة في بريتكستا. إنه اسم مسيحي.

- حقاً؟ في هذه الحالة. هذا مدعاة للغرابة أكثر.

لا تسخري من الدين. أيتها الأنثى المدنسة. لقد ولدت في يوم 24 فبراير. يوم القديس - بريتكستا. وإزاء تعطل الإلهام، اكتفى

والدي ووالدتي بالامتثال لقرار الروزنامة.

- يا إلهي. لو ولدت إذن في يوم ثلاثاء المرفع لسموك ثلاثاء المرفع أو لسموك المرفع لا أكثر؟

- توقفي عن التجديف، أيها الكائن الخسيس - اعلمي أيتها الجاهلة بأن القديس بريتكستا كان أسقف روان في القرن السادس وصدّيقاً كبيراً لغريغوار دوتور الذي كان رجلاً طيباً جداً. أنت لم تسمعي بطبيعة الحال أبداً أي شيء عنه. بفضل بريتكستا ظهر الميروفنجيون في الوجود[1]. لأنه هو الذي زوّج ميروفي ببيرنهوت. مخاطراً بحياته في سبيل ذلك. كل هذا لأقول لك بأنه لا ينبغي الضحك من اسم لامع كهذا.

- لا أرى كيف ستتمكن تدقيقاتك التاريخية من جعل اسمك أقل مدعاة للضحك، وفي المناسبة لا بأس باسم قريبتك أيضاً.

- ماذا؟ أتتجرئين على الضحك من اسم قريبتي؟ أمنعك من هذا؟ أنت وحش الفظاظة والذوق السيئ! ليوبولدين هو الاسم الأكثر جمالاً، والأكثر نُبلاً، والأكثر رحمة، والأكثر إثارة للحزن الذي سمي به أي إنسان.

- آه.

- تماماً. لا أعرف سوى اسم واحد يصل إلى كعب ليوبولدين: هو آديل.

---

(1) سلالة ملكية حكمت عدة أقطار من أوروبا (فرنسا، بلجيكا، جزء من ألمانيا) ما بين القرن الخامس والقرن الثامن بعد الميلاد.

- عجباً، عجباً.

- نعم. كان للأب **هيغو** عيوبه، لكن كان لديه شيء لا أحد يستطيع أن يحرمه منه: كان صاحب ذوق وحتى حين تشوب أعماله نية سيئة فهي جميلة وعظيمة. لقد أعطى للبنتين هذين الاسمين الأكثر روعة. فبالمقارنة مع آديل وليوبولدين فإن كل الأسماء النسائية تافهة.

- هذه مسألة ذوق.

- ولكن لا أيتها الغبية. من يكترث بذوق أناس مثلك، من الشعب، من طبقة اللصوص، من الوضيعين، من العامة؟ وحدها أذواق العباقرة هي المهمة، مثلي أنا ومثل **فكتور هيغو**، ثم إن آديل وليوبولدين أسماء مسيحية.

- وإذن؟

- أرى الآن بأن الآنسة تنتمي إلى طغمة الدهماء الجديدة التي تحب الأسماء الوثنية. أنت من طراز أولئك الذين يسمون أطفالهم كريشنا، إيلوهيم، عبد الله، تشانغ، أومبيدوكل، سيتينغ، بيل أو أخناتون. أليس كذلك؟ أي بشاعة، أنا أحب الأسماء المسيحية، ما هو اسمك؟

- نينا.

- صغيرتي المسكينة.

- لماذا صغيرتي المسكينة؟

- أنت واحدة أخرى لا تسمى آديل ولا ليوبولدين. ألا تجدين أن العالم غير عادل؟

- هل ستنتهي من الخبط خبط عشواء؟

- خبط عشواء؟ ولكن ما من شيء أهم من هذا. أن لا تُسمّى الواحدة آديل أو ليوبولدين فهذا ظلم حقيقي، تراجيديا بدائية. خصوصاً إذا سميت بهذا الاسم الوثني.

- توقف هنا. نينا اسم مسيحي، يوم القديسة نينا يصادف في 14 يناير وهو يوم أول حوار أجريته.

- لا أرى جيداً ما الذي تريدين أن تبرهني عليه بمصادفة لا معنى لها كهذه.

- ليست تافهة على أية حال. فقد عدت من العطلة يوم 14 يناير، وفي هذا اليوم سمعت بدنوّ موعد موتك.

- إذن، هل تتخيلين بأن هذا يخلق روابط بيننا؟

- لا أتخيل شيئاً. لكنك قلت لي منذ بضع دقائق كلاماً غريباً جداً.

- نعم، لقد قدّرتك أكثر مما تستحقين. وقد خيبتني. أما اسمك فهو الكارثة بعينها بالنسبة لي. والآن، أنت لم تعودي شيئاً في عيني.

- أراني سعيدة بذلك، وستظل حياتي في أمان إذن.

- لا ، حياتك في أمان، نعم. وماذا ستفعلين بها؟

- كل شيء: إتمام هذا الحوار مثلاً.

- هذا مبهر، بينما سيكون بإمكاني بطيبتي أن أضمن لك نهاية رائعة!

- بهذه المناسبة كيف سيكون بإمكانك قتلي؟ إن قتل شابة

رقيقة من قِبَل شاب رشيق له من العمر سبع عشرة سنة عمل سهل، أما بالنسبة لعجوز كسيح فقتل شابة عدوانية، سيكون مخاطرة.

- كنت أعتقد لسذاجتي أنك لست عدوانية. وما كان لشيخوختي، وبدانتي، وعجزي أن تمنعني من ذلك لو أنك أحببتني كما أحبتني ليوبولدين، لو كنت ممتثلة مثلما كانت.

- سيد طاش. أنا بحاجة لأن تقول لي الحقيقة: هل كانت ليوبولدين ممتثلة حقاً وعن وعي؟

- لو كنت رأيت الوداعة التي تركتني أفعل بها ذلك، لما طرحت هذا السؤال.

- ينبغي أيضاً معرفة لماذا كانت وديعة. هل خدّرتها، حمّستها، عنّفتها، ضربتها؟

- لا. لا. لا، ولا. كنت أحبها. وما زلت أحبها. كنت أحبها دائماً أكثر من اللازم. كان لهذا الحب خاصية لم تعرفيها أنت ولم يعرفها أحد من قبل. ولو عرفتها، لما طرحت عليّ هذا السؤال غير اللائق.

- سيد طاش، هل من المستحيل بالنسبة لك أن تتخيل صيغة أخرى لهذه الحكاية؟ كنتما تتحابان. هذا مفهوم. لكن هذا لا يعني بأن ليوبولدين كانت تريد الموت، فإن انقادت لك، فربما لأنها كانت تحبك فقط، لا لأنها كانت ترغب في الموت.

- إنه الأمر نفسه.

- ليس الأمر نفسه. كانت تحبك ربما إلى درجة أنها لم ترد معارضتك.

- تعارضني. لم أحبّ معجم المشاحنات المنزلية، هذا الذي تستعملينه للتعبير عن لحظة ميتافيزيقية.

- ميتافيزيقية بالنسبة لك. ربما ليست كذلك بالنسبة لها. فهذه اللحظة التي عشتها أنت بانتشاء ربما عاشتها هي بإذعان.

- اسمعي، أنا مؤهل أكثر منك لمعرفة ذلك، أليس كذلك؟

- وأنا بدوري أجيبك بأنه لا شيء مؤكد في مثل هذه الحالة.

- تباً لك في النهاية. هل الكاتب أنا أم أنتِ؟

- أنت الكاتب ولهذا أجد صعوبة في تصديقك.

- وإذا حكيت لك ما وقع شفوياً فهل تصدقينني؟

- لا أعرف. حاول إذن.

- واأسفاه. الأمر ليس سهلاً. إذا كتبت عن تلك اللحظة فلأنه كان من المستحيل التحدث عنها. تبدأ الكتابة حين ينتهي الكلام. والانتقال مما يعز على الوصف إلى ما يوصف. الكلام والكتابة يتناوبان ولا يتقاطعان أبداً.

- هذه اعتبارات مثيرة للإعجاب. سيد طاش. لكني أذكّرك بأن الأمر يتعلق بالقتل وليس بالأدب.

- هل هناك فرق؟

- إنه الفرق بين محكمة الجنايات والأكاديمية الفرنسية، على ما أفترض.

- ليس هناك فرق بين محكمة الجنايات والأكاديمية الفرنسية.

- هذا مثير. لكنك تخرج عن الموضوع، يا عزيزي.

- أنت على حق. ولكن أن أحكي هذا! أتعرفين بأنني لم أتحدث أبداً عن حياتي؟

- هناك بداية لكل شيء.

- كان ذلك يوم 13 أغسطس 1925.

- هذه بداية جيدة.

- يوم عيد ميلاد ليوبولدين.

- أي مصادفة ممتعة هذه.

- هل ستصمتين؟ ألا ترين بأنني أتعذّب؟ وأن الكلمات لا تطاوعني؟

- أرى ذلك. وأنا مسرورة بسببه. أنا مرتاحة لأنك وبعد ست وستين سنة، بدأت ذكرى جريمتك تعذّبك أخيراً.

- أنت بائسة وحاقدة مثل كل الإناث. كنت على حق حين قلت بأن **نظافة القاتل** تتضمن فقط شخصيتين نسائيتين: جدتي وخالتي، لم تكن ليوبولدين شخصية نسائية. كانت - وما زالت دوماً - طفلة، كائناً خارقاً يتجاوز الأجناس.

- لكنه لا يتجاوز الجنس. حسبما فهمته حين قرأت كتابك.

- نحن وحدنا كنا نعرف بأنه ليس من الضروري أن يبلغ الواحد منا سن الرشد ليمارس الجنس. على العكس، البلوغ يأتي ليفسد كل شيء. إنه ينغص الملذات الحسية والقدرة على الانتشاء، على الانخطاف. لا أحد يمارس الجنس بمثل هذه الروعة مثل الأطفال.

- كنت تكذب إذن حين قلت بأنك متبتل.

- لا. في المعجم الشائع، فإن فقدان البكارة الذكورية لا يتم إلا بعد البلوغ. غير أنني لم أمارس أبداً الجنس بعد البلوغ.

- أرى أنك تلعب بالكلمات، مرة أخرى.

- لا، أبداً. أنت لا تعرفين أي شيء. ومن الآن فصاعداً أريدك أن تتوقفي عن مقاطعتي باستمرار.

- أنت الذي قاطعت حياة إنسانية، ها أنت تتألم حين يقاطع أحد هذياناتك.

- هيا. إذن، هذياناتي تلائمك جيداً. إنها تجعل مهنتك أكثر سهولة.

- هذا تقريباً صحيح. انطلق إذن من هذيان 13 آب 1925.

- يوم 13 آب (أغسطس) 1925، كان أجمل يوم من أيام العالم، تمنيت أن يعيش كل كائن إنساني في حياته يوماً شبيهاً بذلك اليوم. كان أكثر من تاريخ، كان يوماً جليلاً، أجمل يوم في فصل الصيف. صيف دافئ تهب فيه النسائم، كان النسيم العليل يهبّ تحت الأشجار الكثيفة. بدأنا، ليوبولدين وأنا، يومنا في نحو الواحدة صباحاً، بعد نومنا الطقوسي الذي دام ساعة ونصف الساعة... يمكن أن يعتقد المرء بأننا بمثل هذا الجدول الزمني سنكون مرهقين دائماً. لم يكن الأمر كذلك أبداً. كنا متلهفين لجنّتنا، جنة عدن، بحيث كنا نجد صعوبة في النوم، بعد الثامنة عشرة، وبعد حريق القصر، بدأت أنام ثماني ساعات في اليوم. الكائنات السعيدة جداً أو التعيسة جداً غير قادرة على غياب طويل كهذا. لم نكن، ليوبولدين وأنا، نحب شيئاً أكثر من البقاء مستيقظين. كان فصل الصيف أفضل لنا لأننا كنا نمضي الليالي في الخارج وننام وسط الغابة ملتحفين بغطاء سرير دمقسي مرصّع

باللؤلؤ سرقته من القصر، ومن كان يستيقظ أو لا يتأمل الآخر، وكانت هذه النظرة كافية لجعله يستفيق. في يوم 13 آب 1925 استيقظت أنا أولاً، في حوالى الواحدة، ولم تتأخر هي بالالتحاق بي، كان لدينا الوقت لفعل كل ما تدعونا ليلة جميلة إلى فعله، كل ما كان يتلألأ أقل فأقل في قلب دمقس الذي بهت تلألؤه وصار أكثر فأكثر، أقرب إلى لون أوراق ميتة كان يسمو بنا إلى مقام كهنة المعابد - كان يحلو لي أن أسمي ليوبولدين الكاهنة - كنت منذئذ مثقفاً جداً. وروحانياً جداً، لكنني خرجت عن الموضوع.

- نعم.

- في يوم 13 آب (أغسطس) 1925، كما قلت آنفاً، وفي ليلة هادئة ومظلمة وذات عذوبة غير مألوفة كان اليوم هو يوم ميلاد ليوبولدين، لكن هذا لم يكن يعني أي شيء لنا، فمنذ ثلاث سنوات لم يعد الوقت يعنينا أبداً. لم تعد تتغير أدنى تغير، طالت قامتانا فقط بشكل خارق، دون أن يغيّر هذا النموّ المضحك بنيتينا التي كانت جرداء بلا شكل ولا رائحة، لذا لم أبارك لها عيد ميلادها في ذلك الصباح، أعتقد أني فعلت ما هو أفضل من ذلك. ألقيت درساً صيفياً للصيف نفسه. كانت تلك هي المرة الأخيرة في حياتي التي أمارس فيها الجنس. كنت أجهل ذلك، لكن الغابة كانت تعرف بالتأكيد لأنها كانت صامتة مثل عجوز متلصصة. حدث ذلك حين طلعت الشمس فوق ذرى التلال وبدأت الريح تهب طاردة غيوم الليل وكاشفة عن سماء صافية صفاء شبيهاً بصفائنا.

- أي غنائية رائعة هذه؟
- توقفي عن مقاطعتي، أين وصلت؟
- يوم 13 آب (غشت) 1925، عند طلوع الشمس.
- شكراً آنستي رئيسة قلم المحكمة.
- لا شكر على واجب، سيدي القاتل.
- أفضّل نعتي على نعت ليوبولدين.
- لو كنت رأيتها في ذلك الصباح! كانت المخلوق الأكثر جمالاً في العالم. أميرة عظيمة بيضاء ببشرة ناعمة وعينين فاحمتين وشعر داكن. كان الوقت صيفاً، وباستثناء أوقات نادرة نذهب فيها إلى القصر، كنا نظل عاريين. كانت أملاك العائلة كبيرة جداً بحيث لم يكن يرانا أحد أبداً. وهكذا كنا نمضي سواد أيامنا وسط البحيرات، التي كنت أغزو إليها سيلان سائل الرحم. وبالنظر إلى النتائج فإن ذلك لم يكن عبثياً تماماً، ولكن ما أهمية السبب؟ ما كان يهم هو هذه المعجزة التي كانت تحدث يومياً - معجزة الوقت المتخثّر إلى ما لا نهاية. أو على الأقل هذا ما كنا نؤمن به. في يوم 13 آب 1925 هذا كانت لدينا كل الأسباب لاعتقاد ذلك. حين كان واحدنا يتأمل الآخر بِحِيرة. في ذلك الصباح، وككل صباح غصت في البحيرة دون تردد، وضحكت من ليوبولدين التي تتردد دائماً وقتاً طويلاً قبل أن تدخل الماء البارد. كان هذا الاستهزاء طقساً يضيف متعة إلى متعتي، لأن ابنة خالي لم تكن تبدو جميلة بقدر ما كانت تبدو وهي واقفة، غاطسة إحدى ساقيها في البحيرة، شاحبة، مبتسمة ابتسامة باردة. كنت

على يقين بأنها لن تفلح في الدخول إلى الماء، ثم بدأت بتحريك أطرافها الطويلة للحاق بي، بحركات بطيئة على غرار طائر مائي مرتعش، بشفاه زرقاء وعينين كبيرتين تشعَّان رعباً، كان الخوف يلائمها جيداً. متأتئة بأن ذلك كان مخيفاً.

- ولكنك سادي رهيب.

- أنت لا تعرفين شيئاً. لو كان لديك قليل من عِلم المتعة، لعرفت بأن الخوف والألم وخصوصاً الارتجاف هي أفضل المقدّمات. حين غمرها الماء مثلي، أخلى البرد مكانه للانسياب، للوداعة الرخية التي تتمتع بها الحياة في الماء. في صباح ذلك اليوم، ومثل كل صباح من صباحات الصيف كنا نسبح بدون توقف، أحياناً كنا نغوص في أعماق البحيرة، بعيون مفتوحة ونرى جسدينا المخضرّين بسبب انعكاسات الماء، ونسبح أحياناً على السطح متنافسَيْن في السرعة ونتخبط أحياناً في الماء متعلقين بأغصان شجر الصفصاف، متكلمَيْن كما يتكلم الأطفال ولكن بمعرفة كبيرة بالطفولة. وكنا أحياناً نسبح على ظهرَيْنا، متشربين السماء بعيوننا وسط الهدوء التام للمياه الباردة. وحين تتسرب البرودة إلى أجسادنا كنا نعتلي أحجاراً كبيرة ناتئة ونجفف جسدَيْنا في الشمس. كانت ريح 13 آب لطيفة بنحو خاص. فكانت تجففنا بسرعة. ألقت ليوبولدين بنفسها مجدداً، وقبلي أنا، في الماء ورست بجانب الجزيرة الصغيرة التي كنت أجفف جسدي عليها. جاء دورها لتهزأ بي. أراها كما لو حدث ذلك بالأمس، مرفقاها فوق صخرة وذقنها بين قبضتيها المتشابكتين، النظرة زائغة والشعر

طويل يتموج في الماء مع تموّجات ساقيها اللتين لا تكادان تظهران للنظر واللتين كان بياضهما يثير بعض الخوف. كنا سعيدين جداً، متحابَّيْن جداً، جميلين جداً، وخياليَّيْن جداً، ولكن للمرة الأخيرة.

- لا رثاء، من فضلك، إذا كان ذلك للمرة الأخيرة، فالخطأ خطأك.

- وإذن؟ كيف يجعل هذا ما جرى أقل حزناً؟

- ما جرى يثير أشد الحزن، ولكن بما أنك المسؤول عنه، فليس لك حق الشكوى.

- الحق؟ هذا ما لا ينبغي سماعه. أنا لا أكترث بالقانون، ومهما تكن درجة مسؤوليتي عما جرى، فإنني سأشكو، ثم، لا مسؤولية لي نهائياً عما جرى.

- آه نعم؟ إنه الريح الذي خنقها؟

- بل أنا من فعل ذلك. لكن الخطأ ليس خطئي.

- تريد القول بأنك خنقتها في لحظة لهو.

- لا. أيتها الحمقاء، أريد القول بأن الخطأ، هو خطأ الطبيعة، خطأ الحياة، خطأ الهرمونات وكل هذه القذارات. دعيني أحكي لك قصتي ودعيني أكون رثائياً. كنت أحدثك إذن عن بياض ساقي ليوبولدين، ذلك البياض الغامض، وعلى الأخص حين تشفان تحت المياه الخضراء الداكنة. لنظل في توازن أفقي، كانت ابنة خالي تحرك ساقيها ببطء، وكنت أراهما تصعدان بالتناوب نحو السطح - ولم يكن لقدمها متسع من الوقت

لتطفو. حيث تهبط الساق ليغمرها العدم قبل أن تخلي مكانها لبياض الساق الأخرى، وهكذا دواليك. في يوم 13 آب 1925 هذا، كنت متمدداً فوق الجزيرة الحجرية الصغيرة، لم أكن أملّ من تأمل هذا المنظر الساحر. ولا أعرف كم دامت تلك اللحظة؛ ما أعرفه هو أن تلك اللحظة قد توقفت بسبب تفصيل غير عادي ما زالت حقارته تصدمني إلى اليوم: كانت حركة باليه ساقي ليوبولدين تبرز من أعماق البحيرة خيطاً رفيعاً من سائل أحمر ذي كثافة خاصة جداً، إذا حكمنا عليه من عدم قابليته للامتزاج بالماء الصافي.

- كان إجمالاً خيطاً من دم.

- كم أنت فجة.

- كانت ابنة خالك ببساطة تخضع لأولى قواعد المرأة.

- أنت مقزّزة.

- ليس هناك ما هو مقزز، الأمر عادي.

- بالضبط.

- هذا موقف لا يشبهك يا سيد طاش، أنت العدو الشرس لسوء النية، والمدافع الضاري عن اللغات المباشرة، وها أنت تنصدم، مثل بطل من أبطال **أوسكار وايلد**[1] لأنه سمع من يُسمّي القط قطاً، كنت مجنوناً بحب ليوبولدين لكن هذا الحب لم يكن ليخرجها من عداد البشر.

---

(1) أوسكار وايلد (1854 - 1900) روائي وشاعر ومسرحي إيرلندي اشتهر بعدة أعمال: بورتريه دوريان غراي.

- بلى.

- قل لي بأنني أحلم. أنت العبقري الساخر، القلم **السيليني**، مشرّح الكائنات، الكلبي الميتافيزيقي السخرية، تقول سخافات جديرة بصبي من عصر الباروك.

- اسكتي، يا محطمة الأيقونات، هذه ليست سخافات.

- آه، لا؟ حبّ أسياد القصر الصغار، الفتى المحب لابنة عمه النبيلة، الرهان الرومانسي على الزمن، البحيرات الصافية في الغابات الأسطورية، إذا لم تكن هذه سخافات، فلا شيء سخيف في هذا العالم.

- لو كنت تتركين لي مجال رواية التتمة، فستفهمين بأن الأمر لا يتعلق فعلاً بسخافات.

- حاول إذن أنه تقنعني، ولن يكون ذلك سهلاً، فكل ما رويته حتى الآن أثار استهجاني، فتى لا يستطيع أن يقبل بأن تعيش ابنة عمه أول نزول دم الحيض، هذا فظ، وهو ينضح بغنائية نباتية.

- التتمة ليست نباتية، لكنني في حاجة إلى حد أدنى من الصمت لأحكي.

- لا أعدك بشيء، من الصعب سماعك بدون رد فعل.

- اصبري على الأقل حتى أكمل ثم بادري إلى رد الفعل، تباً، أين وصلت؟ جعلتني أفقط خيط روايتي.

- خيط من دم في الماء.

- يا إلهي، هذا صحيح، تخيلي صدمتي: التطفل القاسي لهذا

اللون الأحمر والحار في قلب كل تلك الدكنة - الماء البارد والسواد المخضوضر للبحيرة، وبياض كتفي ليوبولدين، وشفتاها الزرقاوان ككبريت الزئبق، ثم على الأخص ساقاها حين تذكران بغطسهما المكتوم، الذي لا يُرى، وبطئهما الغامض الذي لا يُسْبَر بملاطفات أهل الشمال. لا، كان من غير المقبول أن ينبع من بين تينك الساقين دفق أحمر مقزز.

- مقزز!

- مقزز، أصر على ذلك، مقزز لأنه كان أكثر بكثير من ذلك بما يعنيه من طقس بشع، من انتقال من الحياة الأسطورية إلى الحياة الهرمونية، من الحياة الأبدية إلى الحياة الدورية. لا بد من أن يكون المرء مخلوقاً نباتياً لكي يكتفي بخلود دوري برّاق، فإن هذا تناقض في الألفاظ. فبالنسبة لليوبولدين ولي أنا، لم نكن نستطيع أن نتصور الخلود إلا من طرف شخص فرد وحيد، ما دام هذا الفرد يجمعنا كلينا. أما الخلود الدوري، فيقتضي أن أشخاصاً آخرين يتناوبون حياة بعضهم بعضاً. وسيكون من اللازم الاستمتاع والرضى بنزع الملكية هذا، سيكون من اللازم الاستمتاع بهذه السرقة. أنا أحتقر هؤلاء الذين يرضون بهذه المهزلة المشؤومة: لست أحتقرهم بسبب قدرتهم الخرافية على الخضوع، بقدر ما أحتقرهم على فقر الدم في حبهم. فلو كان بمقدورهم عيش حب حقيقي، لما أذعنوا لهذا الوهن ولما سمحوا لأنفسهم برؤية الأشخاص الذين يدّعون محبتهم يكابدون الشقاء ولكانوا تحمّلوا دونما أنانية جبانة مسؤولية حمايتهم من هذا القَدَر الوضيع. كان

خيط الدم هذا في ماء البحيرة لا يعني سوى نهاية خلود ليوبولدين، وخلودي، وبما أنني أحبها بعمق، قررت إعادتها إلى الخلود بلا تأخير.

- لقد بدأت أفهم.

- أنت لا تفهمين بسرعة.

- بدأت أفهم إلى أي حد أنت مريض.

- وماذا ستقولين عن النهاية إذن؟

- معك، ينبغي دائماً توقع الأسوأ.

- معي أو بدوني، ينبغي توقع الأسوأ، ولكن أظنني تفاديت الأسوأ، ولو لشخص واحد على الأقل. رأت ليوبولدين نظراتي مسمّرة على نقطة وراءها فاستدارت. خرجت من الماء بسرعة كأنها مذعورة، وتمددت بجانبي على سطح الجزيرة الصخرية. لم يكن ثمة شك من منبع خيط الدم هذا. كانت ابنة خالي مشمئزة وكنت أتفهّم وضعها لأننا طوال السنوات الثلاث الأخيرة لم نتحدث قط عن هذا الاحتمال. كان بيننا اتفاق ضمني بخصوص السلوك الذي ينبغي اعتماده في مثل هذه الحالات وهي حالة يصعب قبولها بحيث إننا ومن أجل الحفاظ على سذاجتنا فضّلنا الركون إلى اتفاق ضمني.

- هذا ما كنت أخشاه: لم تطلب منك ليوبولدين شيئاً، وقتلتها أنت باسم هذا «الاتفاق الضمني» النابع من ظلمات تخيلاتك الشريرة وحدها.

- لم تطلب مني شيئاً بوضوح، غير أن ذلك لم يكن ضرورياً.

- نعم هذا بالضبط ما كنت أقوله، خلال لحظات سوف تتباهى أمامي بفضائل الاتفاق غير المعلَن.

- كنت تريدين عقداً مصدقاً حسب الأصول من طرف أحد الموثّقين، أليس كذلك؟

- كنت سأفضل أي شيء آخر على طريقة تصرفك.

- لا يهم ماذا تفضلين أنت. المهم هو سلام ليوبولدين.

- ما كان يهمك بالأساس هو تصوّرك لسلام ليوبولدين.

- كانت تشاركني التصور نفسه، والدليل على ذلك يا آنستي العزيزة، هو أننا لم ننبس ببنت شفة. قبّلت عينيها بحنو شديد، ففهمت كل شيء. كانت هادئة، وقد ابتسمت. ثم حدث كل شيء بسرعة البرق، ما هي إلا ثلاث دقائق، حتى ماتت.

- ماذا؟ هكذا، وبدون مهلة.. هذا.. هذا وحشي؟

- كنت تريدين أن يأخذ الأمر ساعتين من الزمن، كما في الأوبرا؟

- ولكن في النهاية، إننا لا نقتل الناس هكذا.

- آه. لا؟ لم أكن أعرف بأن هناك طرقاً عديدة للقتل؟ هل هناك معاهدة تنص على الطرائق الحميدة التي يستخدمها القاتل؟ موجز لآداب السلوك من أجل الضحايا؟ في المرة المقبلة، أعدك بأن أقتل بطريقة أكثر تهذيباً.

- المرة المقبلة؟ حمداً لله، لن تكون هناك مرة مقبلة، أنت تجعلني أشعر برغبة بالتقيؤ.

- كيف؟

- هكذا إذن؟ كنت تتظاهر بحبها، ثم خنقتها من غير أن تبوح لها بذلك ولو لمرة أخيرة.

- كانت على دراية بهذا، ثم إن حركتي كانت دليلاً على ذلك، لو لم أحبها كثيراً لما كنت قتلتها.

- كيف يمكنك أن تكون متأكداً من أنها كانت تعلم؟

- لم نكن نتحدث عن هذه الأشياء، كنا نفكر بالطريقة نفسها. ثم إننا لم نكن نثرثر كثيراً، لكن دعيني أحكي لك عن عملية الخنق، لم تتسنَ لي أبداً فرصة التحدث عن ذلك، أحب التفكير في هذا: كم من مرة لم أعش ثانية وفي حميمية ذاكرتي هذا المشهد الرائع؟

- لديك الكثير من هذه التسليات.

- سوف ترين. أنت أيضاً سوف تميلين إلى ذلك.

- أميل إلى ماذا؟ إلى ذكرياتك، أم إلى طريقة خنقك؟

- إلى الحب، ولكن دعيني أحكي لك من فضلك.

- ما دمت تصرّ على ذلك.

- كنا على الجزيرة الصخرية وسط البحيرة، وعندما صدر قرار الموت، فإن جنة عدن التي انتزعت منا لأول مرة خلال دقيقتين، عادت إلينا مدة ثلاث دقائق. كنا على يقين من أنه ليس أمامنا سوى 180 ثانية لنغرق بنعيم الحب، لذلك كان من الواجب ممارسة الحب على أحسن وجه، وقد قمنا بذلك بنحو جيد، أعرف بماذا تفكرين: بأن الفضل كله في هذا الخنق يعود إلى القاتل وحده. ولكن هذا غير صحيح لأن الضحية كانت أقل

«سلبية» بكثير مما تعتقدين. هل شاهدت ذاك الفيلم السيئ الذي قام بإخراجه أحد «البرابرة» من جنسية يابانية على ما أظن أنا لا أذكر والذي ينتهي بعملية خنق تدوم حوالى 32 دقيقة؟

- نعم، فيلم إمبراطورية الحواس لأوشيمي.

- كان مشهد الخنق غير موفَّق، أنا أكثر دراية بذلك، ويمكنني التأكيد على أن الأمور لا تحصل بتلك الطريقة. أولاً إن عملية خنق تستمر 32 دقيقة، هي مشهد مقزز، ترفض كل الفنون الإقرار بفكرة أن عمليات القتل ما هي إلا طارئ خفيف وسريع. ولكن هيتشكوك فهم الأمر جيداً. ثم إن ما لم يفهمه السيد الياباني: هو أن عملية الخنق ليس فيها أي شيء مهدئ ومؤلم بل هي على العكس، منشطة ومنعشة.

- منعشة؟ يا لها من صفة غير منتظرة. في هذه الحالة، لماذا لا تقول «منشط» فيتاميني بما أنك تتكلم هكذا؟

- لم لا؟ فنحن نشعر فعلاً بالنشاط عندما نقوم بخنق أحد الأشخاص المحبوبين.

- من يسمعك تتحدث هكذا يظن أنك تقوم بهذا بنحو منتظم.

- يكفي القيام بشيء مرة واحدة فقط - بعمق - لكي لا تتوقفي عن القيام به طوال حياتك. في الختام، كان لا بد من جعل المشهد الرئيسي، مشهداً جمالياً. وهو ما لا يعرفه السيد الياباني ربما، أو أنه أخرق جداً، لأن مشهد الخنق كان لديه بشعاً، بل مثيراً للسخرية: فالخانقة كانت كما لو أنها تقوم بعملية ضخ، أما المخنوق فبدا كما لو أنه مسحوق تحت آلة حفر، في حين أن

عملية الخنق عندي كانت عملاً رائعاً. يمكنك أن تصدقيني.

- لا أشك في ذلك، لكنني أتساءل لماذا اخترت «الخنق»؟

نظراً للمكان الذي كنتما فيه فإن إغراقها كان منطقياً أكثر. إضافة إلى ذلك كان هذا ما أخبرت به أبوَيْ ضحيتك، عندما أحضرت لهما الجثة - وهو تفسير يصعب تصديقه، نظراً لآثار الخنق على عنقها. إذن لماذا لم تقم، بكل بساطة، بإغراق الطفلة؟

- سؤال وجيه، لقد فكرت في هذا ذاك اليوم، يوم 13 آب 1925. كان رد فعلي سريعاً آنذاك. قلت في نفسي إنه إن كانت جميع المسميات باسم ليوبولدين سيمُتْنَ غرقاً، فإن هذا سيتحول إلى سُنّة، إلى قانون خاص بهن، وسيكون ذلك مبتذلاً. دون حساب أن ذكرى الأب هيغو ستستاء ربما من هذا الانتحال الوضيع

- استنكفت عن إغراقها إذن لتفادي «الإحالة» إلى ذكرى. لكن اختيار الخنق سيعرّضك لعدة إحالات أخرى.

- هذا صحيح، لكن هذا الدافع لم يدخل بعين الاعتبار، لا، إن السبب الذي جعلني أخنق ابنة خالي كان على الأخص جمال عنقها، سواء من جانب القذال، أو من جانب الفم، كان عنقاً عظيماً، طويلاً وليّناً، بخطوط رائعة. يا لها من رشاقة! فمن أجل خنقي أنا سيلزم أربعة أياد على الأقل، لكن بعنق حساس كعنقها، كان الأمر سهلاً جداً.

- لو لم يكن عنقها جميلاً، ما كنت لتخنقها؟

- لا أعرف، ربما كنت سأخنقها رغم ذلك لأنني أفضل

استخدام اليد، والقتل خنقاً هو أحسن طرق القتل عن طريق اليد. الخنق يعطي للأيدي شعوراً مفعماً بالحسية لا مثيل له.

- أنت تلاحظ بأنك قمت بخنقها إذن من أجل إرضاء متعتك، فلماذا تحاول إقناعي بأنك خنقتها من أجل خلاصها.

- عزيزتي الصغيرة، أنت لا تفهمين، أنت معذورة على جهلك التام باللاهوت. ومع ذلك، فما دمت تزعمين بأنك قرأت كل كتبي، فلا بد أنك ستفهمين. لقد قمت بكتابة رواية جيدة هي «**النعمة المصاحبة**» والتي تتكلم عن النشوة التي يمنحها الرب أثناء القيام بأفعال لجعلها مباركة. إنه مفهوم لم أقم أنا بابتكاره، لكنه معروف عند جميع المتصوفة. إذن فإن خنق ليوبولدين كان تلك «النعمة المصاحبة» لخلاص حبيبتي.

- ستنتهي إلى القول بأن رواية **القواعد الصحية للقاتل** رواية كاثوليكية.

- لا بل هي رواية تثقيفية.

- أكمل إذن عملية تثقيفي واروِ لي المشهد الأخير.

- سأصل إلى هذا. جرت الأمور ببساطة التُّحَف الرائعة. جلست ليوبولدين فوق ركبتي، في مواجهتي، لاحظي يا آنستي رئيسة قلم المحكمة أنها فعلت ذلك بملء إرادتها.

- هذا لا يثبت شيئاً.

- أتظنين أنها كانت مندهشة، عندما وضعت يديّ على عنقها، عندما أحكمت قبضتي؟ لا، على الإطلاق، كان أحدنا يبتسم للآخر، العينان في العينين، لم يكن ذلك فراقاً، لأننا متنا معاً،

حين أقول ذلك أقصد أنا وهي معاً.

- يا له من مشهد رومانسي.

- أليس كذلك، لا يمكنك أن تتخيلي كم كانت ليوبولدين جميلة، وخاصة في تلك اللحظة. لا يجب خنق من لهم عنق غائص بين أكتافهم، فليس هذا مشهداً جمالياً لكن من الممتع خنق أناس ذوي أعناق طويلة ورشيقة.

- لا بد أن ابنة خالك كانت مخنوقة أنيقة جداً.

- هذا صحيح، كانت يدي تحس بنعومة غضاريف عنقها وهي تودّع الحياة.

- من يقتل عن طريق الغضاريف سيموت بنفس الطريقة هو أيضاً.

حدّق البدين في الصحفية مندهشاً.

- هل سمعت ما قلته يا آنسة؟

- لقد قلت ذلك عن قصد.

- شيء خارق، أنت تقرئين الطالع. لم أفكر قط بهذا، نحن نعرف جميعاً بأن سرطان el zenveiver platz هو مرض القتلة، ولكن كان ينقصنا تفسير هذه الظاهرة: وها نحن نجده. إن مساجين «كاين» العشرة كانوا ضحية غضاريف ضحاياهم. والرب قال: إن أسلحة القتلة ترتد دائماً إليهم. بفضلك آنستي عرفت أخيراً لماذا أنا مصاب بسرطان الغضروف. ألم أقل لك إن اللاهوت هو علم العلوم.

وبدا أن الروائي قد بلغ حد النشوة الفكرية للعالم، الذي

اكتشف أخيراً وبعد عشرين سنة من البحث تناسق نظامه. كانت نظرته تعرّي شيئاً ما مطلقاً وغير مرئي، فيما كان جبينه الذهني يتلألأ كمخاط.

- أنتظر دائماً نهاية هذه القصة يا سيد طاش.

كانت الفتاة النحيلة تراقب باشمئزاز السحنة اللامعة للعجوز الضخم.

- نهاية القصة آنستي؟ لكن هذه القصة لا تنتهي أبداً، فهي تكاد تبدأ للتو! أنت نفسك من قام بإفهامي ذلك. الغضاريف، مفاصل بامتياز، إنها مفاصل الجسد! ولكنها على الأخص مفاصل هذه القصة!

- ألست تهذي الآن؟

- هذيان! نعم، هذيان الانسجام وجدته أخيراً وبفضلك يا آنستي، سيكون بوسعي أخيراً أن أنهي الرواية. تحت عنوان: **نظافة القاتل** وسأكتب عنواناً فرعياً «قصة الغضاريف» الوصية الأجمل في العالم، ألا تعتقدين؟ لكن يجب أن أسرع، لم يتبقّ لي الكثير من الوقت، يا إلهي أي استعجال وأي إنذار نهائي!

- لك كل ما تشاء، لكن قبل إكمال روايتك، عليك أن تحكي لي عن نهاية ذلك اليوم، يوم 13 آب من عام 1925.

- لن يكون هذا تتمة للرواية بل لفتة إلى الماضي! افهميني: الغضاريف هي حلقتي المفقودة، مفاصل مزدوجة تسمح بالذهاب من الوراء نحو الأمام ولكن أيضاً من الأمام إلى الوراء،

وبالدخول في كلية الزمن، الخلود! تطلبين مني نهاية ليوم 13 آب 1925، لكن هذا اليوم ليس له نهاية، ما دام الخلود قد بدأ في هذا اليوم. هكذا فأنت تعتقدين أننا في يوم 18 يناير 1991، وتعتقدين بأننا في فصل الشتاء أو أن الحرب تدور في الخليج. خطأ فادح! فروزنامة الزمن قد توقفت منذ 65 سنة ونصف! نحن في عز الصيف، وأنا طفل جميل.

- لا أرى شيئاً من ذلك.

- لأنك لا تنظرين إليّ بقوة، انظري إلى يديّ، إلى يدي الجميلتين جداً المرهفتين جداً.

- عليّ الاعتراف بأن هذا صحيح، فرغم بدانتك وتشوهك، ما زالت يداك جميلتين، كيدي الكاتب.

- أليس كذلك؟ هذه علامة بالطبع: لقد لعبت يداي دوراً في هذه القصة. فمنذ الثالث عشر من آب 1925 لم تتوقف عن الخنق. ألا ترين أنه في هذه اللحظة بالذات بأنني أخنق ليوبولدين؟

- لا.

- بلى، انظري إلى يدي، انظري إلى سلامياتها وهي تعانق هذا العنق الملائكي، انظري إلى أصابعي وهي تجمع بحنوّ غضاريفها، وتخترق نسيجها الإسفنجي، هذا النسيج الذي سيغدو هو النص المكتوب.

- سيد طاش، أضبطك متلبساً باقتراف استعارة.

- ليس ما أقوله استعارة، ما هو النص إذن، إن لم يكن عبارة عن غضروف شفوي هائل؟

- سواء أردت ذلك أم لا، كانت هذه استعارة.

- لو ترين الأشياء في شموليتها كما أرى الآن فسوف تفهمين. فالاستعارة اختراع يسمح للناس بناء لحمة بين شظايا رؤيتهم، وعندما تتلاشى هذه الشظايا، لا يعود للاستعارات أي معنى. صغيرتي المسكينة العمياء، ربما ستتمكنين في يوم من الأيام من الوصول إلى رؤية شمولية للأشياء، تفتح عيناك أخيراً، مثلما انفتحت عيناي أخيراً بعد 65 سنة ونصف من العمى.

- ألا تكون بحاجة إلى مهدّئ سيد طاش؟ تبدو لي متوتراً بنحو خطير.

- نعم نسيت أنه من الممكن أن يكون المرء سعيداً إلى هذه الدرجة.

- وما هي دواعي سعادتك؟

- لقد سبق وأخبرتك: أنا أخنق ليوبولدين.

- وهل هذا يجعلك سعيداً؟

- نعم، ابنة خالي تقترب من السماء السابعة، رأسها منقلب إلى الوراء، فمها الجميل منغلق وعيناها الواسعتين تبتلعان اللانهائي إلا إذا كان اللانهائي يبتلعهما، وجهها مضنى بابتسامة كبيرة، وها هي ذي تموت فأنا أرخي قبضتي، وأترك جسدها يغرق في البحيرة ليسبح على ظهرها، عيناها تنظران إلى السماء بانتشاء ثم تهبط وتختفي.

- هل ستعاود اصطيادها؟
- ليس الآن، أنا أفكر أولاً بما فعلته.
- هل أنت راضٍ عن نفسك؟
- نعم، أنا أنفجر بالضحك.
- أنت تضحك؟
- نعم، وأفكر بأن القتلة يسفكون عادة دماء الآخرين، في حين أنني من دون إراقة قطرة واحدة من دم ضحيتي، قمت بقتلها لوضع حد لنزيفها، ولأعيد تشكيل خلودها الأصلي والذي لا دماء فيه. إن فعل هذا التناقض يضحكني.
- لديك حسّ فكاهة منحط بنحو مدهش.
- ثم أنظر إلى البحيرة، التي سوّت الرياح سطحها إلى حد امّحاء التموجات الأخيرة التي أصدرها سقوط جسد ليوبولدين، وأعتقد بأن هذا الكفن يليق بابنة خالي. وفجأة أفكر في غرق فيلوكيي وأتذكر شعاره: حذار يا بريتكستا، لا لقوانين النوع الأدبي، لا للانتحال. ثم أغوص لأصل إلى الأعماق المخضرّة حيث تنتظرني ابنة خالي: التي هي قريبة جداً مني، ولكنها تطوف كطوْف مغمور بالمياه، كان يطفو شعرها الطويل أعلى من وجهها، وتبتسم لي ابتسامة غامضة شبيهة بابتسامة أتلانت.
صمت طويل.
- وبعد ذلك؟
- آه. وبعد ذلك.. أرفعها إلى اليابسة، أحمل بين ذراعيّ جسدها الخفيف، الليّن كطحلب، ثم أعود بها إلى القصر، حيث

يثير وصول هذين الجسدين العاريين شعوراً عاصفاً. وقد لاحظوا بسرعة أن ليوبولدين كانت أشد عرياً مني. أي شيء أشد عرياً من جثة؟ وتبدأ حينئذ تظاهرات مضحكة: صراخ، بكاء، نحيب، لعنات ضد القدر وضد إهمالي. مشهد فني رديء جدير بكاتب مبتدئ: فما إن أتوقف أنا عن تنظيم الأشياء حتى تأخذ اللوحات شكلاً آخر فاسداً إلى حد بعيد.

- يمكنك تفهم كرب هؤلاء الناس وخصوصاً والدا الضحية.

- حزن، قنوط... لقد بدا لي هذا مبالَغ جداً فيه. لم تكن ليوبولدين بالنسبة لهما سوى فكرة فاتنة وزخرفية. لم يكونوا يرونها قط تقريباً. فمنذ ثلاث سنوات اخترنا الغابة مسكناً تقريباً ولم يكونوا يقلقون عليها قط. تعرفين أن أسياد هذا القصر كانوا يعيشون في عالم من التخيلات التقليدية: وفي تلك اللحظات أدركوا أن موضوع المشهد هو «جثة الطفل الغريق والعائد إلى والديه». يمكنك تخيل الإشارات الساذجة للكاتب **شكسبير** أو الكاتب **هيغو** التي فرضت نفسها على هؤلاء الناس الطيبين. فتلك التي يبكون موتها، لم تكن ليوبولدين دوبلانيز سانت - سيلبيس بل كانت ليوبولدين هيغو أو بالأحرى أوفيلي، بل كل الطهارات الغارقة في هذا الكون. بالنسبة لهم كانت الأميرة جثة نظرياً، بل يمكن القول بأنها كانت ظاهرة ثقافية بحتة. وغير رثائهم، لم يفعلوا شيئاً سوى إثبات تبلد إحساسهم العميق: لا، إن الإنسان الوحيد الذي كان يعرف ليوبولدين، الإنسان الوحيد الذي يملك دوافع حقيقية للبكاء: هو أنا.

- لكنك لم تكن تبكيها.

- بالنسبة للقاتل فإن بكاء ضحيته لن يكون وارداً ضمن أفكاره: ثم إنني كنت أعلم جيداً بأن ابنة خالي كانت سعيدة، سعيدة إلى الأبد، لذا كنت رابط الجأش وسعيداً وسط هذا العويل الصاخب.

- وهذا ما لاموك عليه كما أعتقد.

- نعم.

- أنا مضطرة إلى الاكتفاء بهذه الافتراضات، نظراً لأن روايتك محدودة الأفق.

- أجل، يمكنك ملاحظة أن روايتي هي عمل «مائي». وإنهاء هذا الكتاب بكارثة القصر أحدث ذلك التجانس المائي. لطالما أزعجني أولئك الفنانون الذين لا يفوتهم أبداً ذكر الماء والنار في آن واحد: إنها ثنائية تافهة ومَرَضية.

- لا تحاول أن تكسبني إلى صفك، ليست هذه الاعتبارات الميتافيزيقية هي التي جعلتك تتخلى عن إكمال روايتك بهذه الطريقة المفاجئة. لقد قلت لي السبب بنفسك منذ قليل: ثمة سبب غامض هو الذي جعلك تتوقف عن الكتابة. وأنا سألخّص صفحاتك الأخيرة: تركت جثة ليوبولدين بين يدي أبويها المنهارين، بعدما شرحت لهم القصة بطريقة مختصرة إلى حد الوقاحة. وتقول في آخر جملة في الرواية: «ثم ذهبت إلى غرفتي».

- إنه خاتمة لا بأس بها.

- لنقبل ذلك، ولكن هل تتصور بأن القارئ يظل على تعطُّشه؟

- آنستي العزيزة، إنك على صواب، وفي الوقت نفسه أنت مخطئة. لقد أصبت من جهة في أن هناك سبباً خفياً أرغمني على ترك روايتي دون إنهائها، وأخطأت من جهة أخرى، فلأنك صحفية جيدة، كنت تحبّذين لو أنهي الرواية بطريقة مطوّلة. صدقيني، كان هذا دنيئاً، لأن ما حدث بعد 13 آب حتى الآن لم يكن سوى انحطاط قذر وقبيح، فمنذ يوم الرابع عشر من آب، تحول الطفل الهزيل الزاهد الذي كُنْتُه إلى شره رهيب. ربما كان ذلك راجع إلى الفراغ الذي تركه موت ليوبولدين؟ شعرت باستمرار برغبة في أكل هذه الأطعمة المقززة - والتي لا زلت أحتفظ بمذاقها. في غضون ستة أشهر ازداد وزني ثلاثة أضعاف، أصبحت سميناً وبشعاً، فقدت شعري وفقدت كل شيء. كنت أريد أن أحدثك عن التصور التقليدي لدى عائلتي: هذا التصور يقتضي أن يصوم أهل الميت وأقرباؤه ويخففوا من وزنهم بعد موت شخص عزيز. وهكذا توقف كل سكان القصر عن الأكل، وخففوا من وزنهم: ما عدا نوعي الفضائحي: كنت أزداد سُمنة وانتفاخاً أمام أنظارهم. أتذكر بما لا يخلو من إثارة للضحك وجبات الطعام المختلطة تلك: حينها كان جدي وجدتي وخالي وخالتي يلطخون قليلاً صحونهم وهم ينظرون إليّ منزعجين وأنا أفرغ الأطباق وألتهم كشخص غير مؤدب. إضافة إلى الكدمات القبيحة التي رأوها على عنق ليوبولدين، لقد زادت تلك الشراهة من الاستنتاجات. فلم يعد أحد يكلمني، وأحسست بأني محاط باتهامات حقودة.

- لكنها صحيحة.

- تصوري أنني أردت أن أتخلص من هذا الجو الذي بدأ يغضبني شيئاً فشيئاً، وتصوري أنني كرهت إزالة الشكوك من روايتي الرائعة بهذه الخاتمة المحزنة. لقد أخطأت إذن عندما أردت للرواية نهاية ككل النهايات. في الوقت نفسه أنت محقة، لأن هذه القصة لا بد لها من نهاية حقيقية. ولكن لم يكن بإمكاني معرفة هذه النهاية حتى الآن، لأنك أنت من أتى بهذه النهاية.

- أنا أتيت بالنهاية؟

- هذا ما تفعلينه في هذه اللحظة.

- إذا أردت إزعاجي فقد نجحت، لكنني أريد تفسيراً.

- لقد أعطيتني مسبقاً معطى أخيراً بالغ الأهمية، بملاحظاتك حول «الغضاريف».

- أتمنى أن لا يكون لديك نية بإفساد هذه الرواية الرائعة بهذا الهذيان حول الغضاريف الذي أتيت على ذكره مسبقاً.

- لمَ لا؟ إنها فكرة حسنة.

- سألوم نفسي لأنني اقترحت عليك نهاية سيئة، من الأحسن ترك الرواية بدون نهاية.

- أنا من سيحكم على ذلك، ولكنك ستقدمين لي شيئاً آخر.

- ماذا إذن؟

- أنت من سيعلمني ذلك، يا طفلتي الصغيرة، فلننتقل إلى الخاتمة، هل تريدين ذلك؟ لقد انتظرنا الوقت المناسب.

- أية خاتمة؟

- لا تلعبي دور البريئة، سوف تقولين لي أخيراً من أنت؟ وأي رابط غامض يمكن أن يربطك بي؟

- لا شيء.

- ألست الناجية الأخيرة من سلالة بلانيز دو سانت - سلبيس؟

- أنت تعرف جيداً بأن هذه السلالة انتهت. وأنت السبب في ذلك؟

- هل لك قرابة قديمة مع طاش؟

- أنت تعرف جيداً أنك آخر سلالة طاش.

- هل أنت ابنة المعلم الصغرى؟

- لا، ما الذي تتخيله؟

- من كان جدك؟ مدير القصر؟ الخادم، خادم الحديقة، إحدى الخادمات المسؤولة عن الغرف؟ أم الطباخة؟

- توقف عن الهذيان سيد طاش، ليس لي أي رابط مع عائلتك، وقصرك وقريتك وماضيك. هذا غير مقبول.

- هذا غير مقبول.

- لماذا؟

- لم تكوني لتبذلي كل هذا الجهد كي تقومي بكل هذه الأبحاث عني لو لم يكن هناك رابط غامض يربطك بي.

- ضبطتك متلبساً بتشويه مهني، سيدي العزيز، فأنت ككاتب مهووس لا تقدر أن تتحمل فكرة أنه لا يوجد أي ارتباط غريب بين شخصياتك. الكتّاب الحقيقيون هم علماء أنساب. آسفة لتخييب أملك: أنا بالنسبة لك غريبة.

- أنت مخطئة تماماً. ربما تجهلين الرابط العائلي، التاريخي، الجغرافي أو الوراثي الذي يربطنا، لكن مما لا شك فيه أن هذا الرابط موجود. ألم يمت أحد أجدادك غرقاً؟ هل هناك من مات مخنوقاً في محيطك العائلي؟

- توقف عن الهذيان سيد طاش، أنت تبحث سدى عن تشابه بين حالتينا، ومع افتراض أن هذا التشابه بيننا سيكون له معنى، فإن ما له دلالة بالمقابل هو حاجتك لإيجاد تشابه.

- دلالة على ماذا؟

- هذا هو السؤال الحقيقي وهو موجَّه لك.

- لقد فهمت، أنا من يجب أن يقوم بكل شيء من جديد. إن أصحاب نظريات الرواية الجديدة في الواقع كانوا كذابين كبار: والحقيقة هي أنه لم يتغير شيء في الإبداع. ففي مواجهة عالم بدون معنى، يضطر الكاتب إلى لعب دور خالق للعالم. فمن دون الترتيب الرائع لريشته، فإن العالم ما كان يوماً قادراً على إعطاء حدود للأشياء، ولظلت قصص الناس مفتوحة مثل بيوت الشباب الإسبانية. وتبعاً لتلك العادة الموغلة في القِدم ها إِنت تتوسلين لي أن ألعب دور «الملقّن»، أن أكتب نصك، وأرقّم عباراتك.

- طيب، قم بدور الملقّن إذن.

- أنا لا أفعل إلا هذا صغيرتي. ألا ترين أنني أتوسّل لك؟ ساعديني على إضفاء معنى على هذه القصة، ولا يكن لديك سوء نية كي تقولي لي بأنه لا وجود لمعنى: نحن بحاجة إلى معنى أكثر مما نحتاج إلى أي شيء. هل تدركين، منذ ست وستين

سنة، انتظرت أن ألتقي بشخص مثلك. لا تحاولي إقناعي أنك أول الوافدين. لا تنكري أن قاسماً مشتركاً غريباً تدخَّل لتنظيم هذا اللقاء. أطرح سؤالي للمرة الأخيرة وأكرر: للمرة الأخيرة، لأن الصبر ليس نقطة قوتي، وأتوسّل لك، أجيبيني بالحقيقة: من أنتِ؟

- واأسفاه سيد طاش.
- لماذا الأسف؟ أليس لديك ما تخبريني به؟
- بلى، ولكن هل أنت مستعد لسماع الجواب؟
- أفضل أبشع وأسوأ الإجابات على الاكتفاء بعدم الإجابة.
- بالضبط، فإجابتي هي عدم وجود إجابة لسؤالك.
- كوني واضحة من فضلك.
- أنت تسألني من أكون، وأنت تعرف ذلك. ليس لأنني سبق وأخبرتك ولكن لأنه سبق وأن قلته بنفسك. هل نسيت؟ قبل قليل، بين مئات الإهانات؟؟
- تفضلي أنا أنتظر.
- سيد طاش، أنا فضولية صغيرة وحقيرة. ليس هناك ما يقال في حقي، صدّق ذلك. أنا آسفة. تأكد أنني وددت لو كانت عندي إجابة أخرى، لكنك طلبت الحقيقة، وهذه حقيقتي الوحيدة.
- لا أستطيع تصديقك أبداً.
- أنت مخطئ، فبشأن حياتي ونَسَبي، لا يمكن أن أقول لك إلا تفاهات. لو لم أكن صحفية، لما قابلتك أبداً. ستبحث وتبحث لتجد دائماً الخلاصة نفسها: لست سوى فضولية حقيرة وصغيرة.

- لا أعلم إذا كنت تدركين بأن هذه الإجابة ليست سوى فظاعات.

- للأسف، أنا أدرك.

- لا أنت لا تدركين. أو لا تدركين كفاية. دعيني أرسم لك بعض فظاعاتك: تخيلي رجلاً طاعناً في السن يحتضر، وحيداً وبدون أمل، تخيلي أن تأتي إليه إنسانة شابة، بعد انتظار يطول ستاً وستين سنة، وتعطي الأمل من جديد لهذا العجوز بإيقاظ ماضٍ دارس. ثمة سببان لذلك: إما أن هذه الإنسانة ملاك غامض قريبة للعجوز، وهذا شيء «إلهي»، أو أن هذه الإنسانة غريبة تحفزها الرغبة وحب الاستطلاع، وفي هذه الحالة اسمحي أن أقول لك بأن هذا شيء قذر، إنه تدنيس لقبر، مصحوب بخيانة للثقة، إنه تجريد مختصر من كنزه القيم، ومحاولة إعطائه تعويضات بديلة، لست سوى كومة من كلام فارغ. عندما أتيت إلى هنا وجدت عجوزاً محتضراً غارقاً في ذكرياته الجميلة ومصرّاً على عدم وجود لحاضره. وعندما ستذهبين من هنا سوف تتركين عجوزاً محتضراً غارقاً في ذكرياته العفنة، يائساً من الحصول على أي حاضر له. فلو كنت تمتلكين قلباً وبعض الحياء لكنت كذبت، لكنت اخترعت إحدى الصّلات التي تربط بيننا. أما الآن فقد فات الأوان، فإذا كنت تملكين قلباً وبعض الحياء فاقتليني، ضعي حداً لاشمئزازي، لأن هذه معاناة لا تُطاق.

- أنت تبالغ، لا أرى كيف أسأت إلى ذكرياتك إلى هذه الدرجة؟

- روايتي كانت بحاجة إلى نهاية، ومناورتك جعلتني أظن أنك ستأتين لي بهذه النهاية. والآن لم أعد أتجرأ على أن آمل ذلك، لقد عدت إلى الحياة بعد هذا السبات اللانهائي، وبعد ذلك، ودون خجل تظهرين لي يدك الخاوية. أنت لم تجلبي لي سوى أمل وهمي في العيش من جديد. في مثل عمري لا يتحمل المرء مثل هذه الأشياء، كنت من دونك سأموت تاركاً روايتي غير مكتملة، وبسببك فإن موتي هو الذي لن يكتمل.

- كفانا من الصور البلاغية! من فضلك؟

- يتعلق الأمر فعلاً بصور بلاغية! هل نسيت أنك جردتني من جوهري، سأخبرك بشيء آنستي: القاتل هو أنت، ولست أنا.

- عذراً!

- لقد سمعتني جيداً. القاتل هو أنت، وقد قتلت شخصين، منذ زمن بعيد وليوبولدين تعيش في ذاكرتي، وكان موتها مجرد حدث تجريدي، لكنك قتلت ذكراها بفضولك، وبذلك قتلت ما كان قد تبقّى مني.

- هل هذه صوفية؟

- كنت ستعرفين بأن هذا ليس صوفية، لو كانت لك معرفة كبيرة بالحب. لكن كيف لفضولية حقيرة أن تعرف معنى الحب؟ أنت أبعد إنسانة عن الحب قابلتها في حياتي.

- إن كان الحب كما تعتقد، فأنا مطمئنة، لأنني غريبة عنه.

- من المؤكد أنني لم أعلّمك شيئاً.

- أتساءل عما يمكنك أن تعلمني، غير قتل الناس خنقاً.

- كنت أريد أن أعلمك أنني بخنق ليوبولدين، أبعدت عنها الموت الحقيقي والوحيد: النسيان. أنت تعتبرينني قاتلاً، وأنا واحد من أندر الكائنات البشرية التي لم تقتل شخصاً. انظري حولك وانظري إلى نفسك: العالم يعج بالقَتَلة. يعج بأشخاص سمحوا لأنفسهم بنسيان من ادّعوا محبتهم، نسيان أحد من الناس، هل فكرت بمعنى ذلك؟ النسيان محيط كبير تبحر فيه باخرة واحدة هي الذاكرة، بالنسبة لأغلب الناس، فإن هذه الباخرة تتحول إلى قارب حقير يتسرّب إليه الماء في كل مناسبة. وقبطان الباخرة شخص من غير ضمير، لا يفكر سوى في التوفير. هل تعرفين معنى هذه الكلمة الخسيسة؟ التضحية يومياً بأفراد من الطاقم، الزائدون منهم. وهل تعرفين من هم هؤلاء الأفراد الذين يعتبرهم مجرد زيادة على الطاقم؟ هل هم الأوباش، المضجرون، الأغبياء؟ لا على الإطلاق: من يلقى بهم من أعلى الباخرة هم من لا فائدة منهم، من قمنا سابقاً باستغلالهم. هؤلاء هم من أعطوا أحسن ما لديهم، فما عساهم قادرين على أن يعطوا من جديد؟ هيا، وبدون شفقة، لننظف المكان ونلقي بهم من وراء سور الباخرة. والمحيط يغمرهم، شلّهم العجز. وهكذا يا آنستي العزيزة يجري وبدون أي نوع من العقاب، جميع عمليات القتل الأكثر بساطة وبديهية. لم أشارك يوماً في هذه المجزرة الرهيبة، وباسم هذه البراءة أنت تدينينني اليوم طبقاً لما يسميه الناس بالعدالة، والتي هي نوع من النميمة.

- من يتكلم عن النميمة؟ ليس بنيتي التبليغ عنك.

- حقاً؟ إذن فأنت أسوأ مما توقعت. يختلق الفضوليون لأنفسهم بوجه عام قضية. أنت فضولية مجانية بلا سبب سوى خلق جوّ نتن. عندما ستذهبين من هنا سوف تفركين يديك وتقولين لنفسك إنك لم تضيّعي هذا اليوم لأنك أنتنت عالم الآخرين. تقومين بمهنة جيدة آنستي.

- إذا فهمت جيداً، فأنت تفضّل أن أجرجرك إلى المحاكم؟

- دون شك، أفكرت في عذابي إن لم تبلّغي عني، عندما تتركينني وحيداً وخاوياً في هذه الشقة، بعد كل ما فعلتِه بي؟ ولكن إذا سقتني إلى المحاكم فإن هذا سيسليني.

- آسفة، سيد طاش، قم أنت بالتبليغ عن نفسك، أنا لا آكل من هذا الخبز.

- أنت أرفع من ذلك؟ أليس كذلك؟ أنت تنتمين إلى أسوأ فصيلة - تلك التي تحب أن تلوّث على أن تدمر. هل يمكن أن تشرحي لي ما دار برأسك، عندما فكرت في تعذيبي؟

- أنت تعرف منذ البداية، عزيزي، هل نسيت رهاننا؟ أردت رؤيتك تزحف على قدمي وفقاً لما كنت قد قلته لي، أنا أرغب بذلك أكثر. ازحف إذن بما أنك خسرت.

- خسرت بالفعل، لكنني أفضل قذَري أكثر من قدرك.

- هذا أفضل لك، ازحف.

- هل هي كبرياؤك النسائية التي تريد أن تراني أزحف؟

- إنها الرغبة في الانتقام. إزحف.

- أنت لم تفهي شيئاً .إذن.

- لن تكون معاييري أبداً كمعاييرك، لقد فهمت جيداً، أنا

أعتبر الحياة هي الخير الأسمى ولن تغير خطاباتك ذلك. من دونك كانت ليوبولدين ستعيش الحياة بما فيها من فظائع، وما فيها من أشياء جميلة كذلك، ليس لدي ما أضيفه. إزحف.

- بعد كل شيء لا ألومك.

- لا ينقص سوى هذا، إزحف.

- أنت تعيشين حياة مختلفة عن حياتي. ومن الطبيعي إذن أنك لا تفهمين.

- تسامحك يثير مشاعري، إزحف.

- في الواقع أنا أكثر تسامحاً منك: فأنا قادر على تقبّل أنك تعيشين بمعايير أخرى. وليس أنت، بالنسبة لك لا توجد سوى وجهة نظر وحيدة، عقلك صغير.

- سيد طاش، تأكد بأن اعتياداتك الوجودية لا تهمني. آمرك بالزحف وكفى.

- إذا افترضنا هذا، كيف تريدينني أن أزحف؟ هل نسيتِ أنني عاجز؟

- صحيح سأساعدك.

قامت الصحفية وأمسكت الرجل البدين من إبطيه، بجهد كبير، ورمت به على الأرض فوق الفراش.

- النجدة، أغيثوني.

في تلك الوضعية كان صوت الروائي الجميل ضعيفاً ومخنوقاً، حيث لم يسمعه أحد سوى المرأة الشابة.

- ازحف.

- لا أقوى على الانبطاح على بطني. الطبيب منعني من ذلك.

- ازحف.

- تباً سوف أختنق بين لحظة وأخرى.

- سوف تعرف إذن معنى الاختناق، الذي سببته لطفلة صغيرة. إزحف.

- كل ذلك من أجل خلاصها.

- طيب إذن. من أجل خلاصك أنا أعرّضك لخطر الاختناق. أنت عجوز كريه وأريد أن أنقذك من الانحطاط. الأمر شبيه إذن بما حدث لها. إزحف.

- لكنني انحططت من زمن مضى. لم أكف عن الانحطاط منذ خمس وستين سنة ونصف.

- في هذه الحالة أريد أن أراك تنحط أكثر. هيا، انحطّ.

- لا يمكنك قول هذا إنه فعل ناقص.

- لو كنت تعلم كم أنا لا أكترث بهذا، لكن إذا كان هذا الفعل الناقص يقلقك، فأنا أعرف فعلاً آخر ليس ناقصاً. إزحف.

- هذا فظيع، أنا أختنق. سأموت.

- مرحى، مرحى. كنت أعتقد أنك تعتبر الموت نعمة.

- هي كذلك لكنني لا أريد الموت الآن.

- آه. لا؟ لماذا تؤخر حَدَثاً سعيداً كهذا؟

- لأنني فهمت شيئاً الآن. وأريد أن أقوله لك قبل الموت.

- موافقة. أقبل بأن أقلبك على ظهرك بشرط واحد: عليك أولاً أن تزحف تحت رجليّ.

- أعدك بأني سأحاول.

- لا أطلب منك أن تحاول. آمرك بأن تزحف. إذا لم تفعل سأتركك تموت.

- نعم. سأزحف.

دبت الكتلة المتعرقة مترين فوق السجادة وهي تلهث كقاطرة.

- هذا يجعلك تستمتعين. ها؟

- نعم هذا يجعلني أستمتع، لكنني أستمتع بالقدر الذي أعي فيه بأنني أنتقم لكائن آخر. من خلال جسمك المتضخم. لدي انطباع بأنني أرى ظهور خيال رهيف يريحه عذابك.

- إخراج مسرحي مبتذل.

- ألست سعيداً؟ هل تريد أن تزحف أكثر؟

- أؤكد لك بأن الوقت حان لتقلبيني. فروحي على وشك الصعود إلى السماء. إن كانت لدي روح.

- أنت تدهشني. الموت من أجل الموت. أليس قتلك بشكل جميل أفضل من احتضار بطيء بفعل السرطان؟

- أتسمين هذا قتلاً جميلاً؟

- القتل في عيني القاتل دائماً جميل. لكن الضحية قد لا تشاطره رؤيته تلك. أتجد الوقت للاهتمام بالقيمة الفنية لموتك الآن؟ اعترف بأنك لا تجد الوقت لذلك.

- أعترف بأنني لا أجده. أقلبيني، الرحمة.

أمسكت الصحفية الكتلة من الخصر والإبط وقلبتها على الظهر وهي تصدر صيحة جهد. كان البدين يتنفس بتشنج. وكان يلزمه عدة دقائق لكي يعود وجهه المرعوب إلى هدوئه.

- ما هو ذلك الشيء الذي اكتشفته وتحرص بشدة على أن تقوله لي؟

- أردت أن أقول لك بأنني أمضيت وقتاً عصيباً.

- وأيضاً؟

- ألا يكفيك هذا؟

- كيف؟ هل هذا كل ما لديك لتقوله لي؟ كان يلزمك إذن ثلاث وثمانون سنة لتعرف ما يعرفه كل واحد منذ الولادة.

- هذا هو الحال. لم أكن أعرف. كان ينبغي أن أصل إلى حافة الموت لأفهم الرعب، ليس الموت هو الذي نجهله كلنا. وإنما لحظة الموت. إنها لحظة عصيبة جداً، إذا كان لدى الناس هذه البصيرة فأنا لم أكن أمتلكها.

- هل تسخر مني؟

- أبداً، بالنسبة لي وحتى اليوم. الموت هو الموت: هذا كل ما في الأمر. وهو ليس خيراً وليس شراً، الموت هو أن تختفي. لم أكن أعرف بأن هناك فرقاً بين ذلك الموت وبين لحظة الموت التي لا تُطاق. نعم. هذا غريب: ما زال الموت لا يثير فيّ دائماً الخوف لكنني منذ الآن سأتصبب عرقاً من القلق لفكرة لحظة الانتقال. ولو أنها لا تدوم إلا ثانية.

- أنت تشعر بالعار إذن؟

- نعم ولا.

- تباً. هل علي أن أجعلك تزحف مجدداً؟

- دعيني أشرح لك، نعم، أحس بالعار لأنني عرّضت ليوبولدين لمثل هذه اللحظة، ومن جهة أخرى، أنا أصرّ على

الاعتقاد، أو على الأقل أتمنى، أن تكون قد استفادت من استثناء، وهو أنني تفحصت وجهها في لحظة احتضارها السريع ولم أقرأ فيه أي أثر للقلق.

- أحب الإيحاءات التي تهدهد بها نفسك لتحافظ على ضميرك مرتاحاً.

- أنا لا أكترث لضميري. السؤال الذي أطرحه يقع في مستوى أعلى.

- يا إلهي.

- لقد نطقت بالكلمة: نعم ربما يمنح الله لبعض الأشخاص الاستثنائيين انتقالاً مجرداً من المعاناة والقلق. منيّة انتشائية. أعتقد أن ليوبولدين عاشت هذه المعجزة.

- اسمع. حكايتك هذه ممجوجة. هل تريد أن تجعلها أكثر غرابة حينما تذكر الله. النشوة والمعجزات؟ هل تتخيل بأنك ربما خلّدت قتلاً صوفياً.

- بكل تأكيد.

- أنت مجنون ينبغي تقييده. أتريد معرفة حقيقة هذا القتل الصوفي أيها المريض؟ أتعرف ما تفعله جثة بعد موتها؟ إنها تتبول، سيدي، وتتبرز ما تبقّى في الأمعاء.

- أنت مقززة. أوقفي هذه المهزلة. أنت تضايقينني.

- أنا أضايقك، أليس كذلك؟ أما قتل الناس فلا يزعجك، لكنك لا تحتمل فكرة تبرّز وبَوْل الضحايا. ها؟ لقد فقد ماء البركة صفاءه وأنت تخرج جثة ابنة خالك، ألم ترَ ما أفرزته أمعاؤها وهو يصعد إلى السطح؟

- اسكتي رحمة بي.

- الرحمة بمن؟ بقاتل عاجز حتى عن تقبّل النتائج العضوية لجريمته؟

- أقرّ لك، أقسم بأن ذلك لم يحدث مثلما قلت أنت.

- آه. لا؟ لم تكن ليوبولدين تمتلك مثانة وأمعاء.

- بلى. لكن... الأمور لم تجرِ كما قلتِ.

- قل بالأحرى بأنك لا تطيق هذه الفكرة.

- هذه الفكرة، أنا لا أطيقها، ولكن الأمور لم تجرِ مثلما قلتِ.

- ألديك نية بتكرار هذه الجملة حتى الموت؟ الأفضل لك أن تفسّر لماذا.

- مع الأسف. لا أستطيع تفسير هذا اليقين، ورغم ذلك أنا أعرف بأن الأمور لم تجرِ كما قلت.

- أتعرف ماذا نسمي هذا النوع من اليقين؟ نسميه الإقناع الذاتي.

- آنستي. بما أنني لم أتمكن من إفهامك ما أقصد، اسمحي أن أتناول المسألة من زاوية أخرى.

- أتعتقد بأن هناك زاوية أخرى؟

- لدي ضعف يجعلني أعتقد ذلك.

- هيا، إذن.

- آنستي، هل أحببت في يوم من الأيام؟

- طفح الكيل. ها نحن نعود إلى باب «بريد القلب».

- لا ، آنستي. لو كنت قد أحببت، ستعرفين بأن الأمر يتعلق بشيء آخر. نينا المسكينة. أنت لم تعرفي الحب أبداً.

- لا تجرب هذا معي. إذا سمحت؟ ثم لا تناديني نينا. أنت تزعجني بذلك.

- لماذا؟

- لا أعرف. سماع اسمي منطوقاً من فم قاتل وبدين أيضاً، فإن فيه شيئاً مقذعاً.

- مع الأسف، لدي، رغم هذا، رغبة شديدة في أن أناديك نينا. ممّ تخافين نينا؟

- لا أخاف من شيء، أنت تثير اشمئزازي، هذا كل شيء، ثم لا تناديني بنينا.

- خسارة، أنا بحاجة لأن أسمّيك.

- لماذا؟

- صغيرتي المسكينة. أنت المجربة الناضجة جداً ما زلت في بعض الجوانب مثل الحمل الذي ولد للتو. أتجهلين ماذا تعني تسمية شخص من الأشخاص؟ هل تتخيلين بأن عامة الناس يولّدون لديَّ نفس الرغبة؟ أبداً، طفلتي، حين نحس في أعماقنا بالرغبة في ذكر اسم شخص فلأننا نحبه.

- ....؟

- نعم، نينا. أنا أحبك، نينا.

- أستتوقف قريباً عن قول الحماقات؟

- إنها الحقيقة، نينا. كان لدي حدس تجاهك قبل قليل. ثم ظننت أنني أخطأت. لكنني لم أخطئ. هذا بالضبط ما كنت أحتاج

إلى أن أقوله لك، حين كنت أموت. أعتقد بأنني لن أقوَ على العيش بدونك. نينا، أنا أحبك.

- استيقظ أيها الغبي.

- لم أكن في يوم متوقد الذهن كما أنا اليوم.

- توقد الذهن لن ينفعك في شيء.

- هذا لا يهم، لم أعد أكترث، أنا ملك يديك.

- توقف عن الهذيان، سيد طاش، أنا أعرف جيداً بأنك لا تحبني. ليس فيّ ما يعجبك.

- كنت أعتقد ذلك أيضاً نينا، لكن هذا الحب استوى فوق كل هذا.

- أرجوك، لا تقل لي بأنك تحب روحي، وإلا سأبكي من الضحك.

- لا. هذا الحب في مرتبة أحلى من ذلك.

- أجدك صرت أثيرياً جداً وبشكل مفاجئ.

- ألا تفهمين بأننا قد نحب شخصاً خارج كل الإحالات المعروفة؟

- لا.

- مع الأسف، يا نينا، رغم ذلك فأنا أحبك، مع كل الغموض الذي يوحيه هذا الفعل.

- توقف، لقد فهمت. تبحث عن نهاية لائقة لروايتك، أليس كذلك؟

- لو كنت تعرفين كم أن هذه الرواية، ما عادت تهمني منذ دقائق.

- لا أعتقد ذلك، لأن عدم الاكتمال هذا يشكل لك هوساً. لقد انزعجت لمعرفة غياب أي صلة شخصية بيني وبينك، لذا فأنت تحاول الآن اختلاق هذه الصلة. وذلك بابتكار قصة حب في الدقائق الأخيرة. لديك كره كبير لغياب المعنى حتى إنك قادر على اختلاق أكبر الكذبات لإعطاء معنى لأشياء تفتقد المعنى.

- أي خطأ هذا، نينا. الحب ليس له معنى. ولهذا السبب فهو مقدس.

- لا تحاول خداعي ببلاغتك. إنك لا تحب شيئاً آخر غير جثة ليوبولدين ثم عليك أن تحس بالعار لتدنيس الحب الوحيد في حياتك بقول أشياء تفتقد للمصداقية كهذه.

- أنا لا أدنس حبي، على العكس. أنا أحبك، أؤكد بأن ليوبولدين علمتني كيف أحب.

- هل هذه صوفية.

- سيكون هذا صوفية لو كان الحب يخضع لقوانين غريبة عن قواعد المنطق.

- اسمع، سيد طاش. اكتب هذه الحماقات في روايتك. إذا كان هذا يسليك لكن توقف عن استعمالي كحيوان مخبر.

- نينا، هذا لا يسليني، الحب لا يصلح للتسلية، الحب لا يصلح لشيء آخر سوى الحب.

- هذا مثير للحماس.

- نعم. لو كنت قادرة على فهم معنى هذا الفعل، لكنت متحمسة بالقدر الذي أكون عليه الآن يا نينا.

- وفّر عليّ حماسك من فضلك؟ وتوقف عن مناداتي نينا، وإلا فلن أعود أتحكم بردود أفعالي.

- أنت لم تعودي تتحكمين بأفعالك، يا نينا، اتركيني أحبك، ما دمت غير قادرة على مبادلتي الحب.

- أحبك؟ ما كان ينقصني إلا هذا. ينبغي أن يكون الواحد ضالاً حقاً ليحبك.

- كوني ضالة إذن يا نينا، وسأكون سعيداً جداً.

- أكره أن أجعلك سعيداً، ليس هناك من لا يستحق السعادة مثلك.

- أنا لا أوافقك.

- بالطبع.

- أنا كريه، قبيح، شرير، ويمكنني أن أكون الشخص الأكثر دناءة في العالم، ورغم ذلك، فأنا أمتلك ميزة نادرة، وجميلة جداً حتى إنني أجدني أستحق أن أكون محبوباً.

- دعني أخمّن: التواضع.

- لا. ميزتي، هي أنني قادر على الحب.

- وباسم هذه الميزة الجليلة تريدني أن أغسل رجليك بالدموع قائلة «بريتكستا أنا أحبك»؟

- قولي اسمي مرة أخرى، هذا لطيف.

- اصمت، إنك تشعرني بالغثيان.

- أنت عظيمة يا نينا، لك شخصية خارقة للعادة، مزاج ناري مصحوب بقسوة باردة. أنت متعجرفة وشجاعة جداً، تمتلكين كل

ما يمكن أن يجعل منك حبيبة رائعة، لو كان بمقدورك فقط أن تكوني قادرة على الحب.

- اسمح لي أن أخبرك بأنك إذا كنت تعتبرني تجسيداً جديداً لليوبولدين فأنت مخطئ، ليس لي أي وجه شبه مع هذه الطفلة الصغيرة الفاتنة.

- أعرف. هل سبق لك أن عرفت الافتتان يا نينا؟

- هذا السؤال يبدو لي في غير محله تماماً؟

- هو كذلك. كل شيء في هذه القصة في غير محله، بدءاً بالحب الذي أوحيت لي به. عند هذه النقطة التي بلغناها، لا ترددي في الإجابة على سؤالي يا نينا. هذا السؤال الذي هو أنقى مما تظنينه: هل سبق لك أن عرفت الافتتان؟

- لا أدري، غير أن ما هو مؤكد هو أني لست مفتتنة في هذه اللحظة.

- أنت لا تعرفين الحب، لا تعرفين الافتتان: وأنت لا تعرفين شيئاً. يا نينتي الصغيرة، كيف يمكنك أن تتمسكي بالحياة بقوة، في حين أنك لا تعرفينها؟

- لماذا تقول لي مثل هذه الأشياء؟ ألكي أدعك تقتلني بكل طواعية؟

- أنا لن أقتلك يا نينا. قبل قليل كنت أفكر بفعل ذلك، ولكن بعد أن زحفت على بطني، تلاشت هذه الرغبة.

- إن هذا يضحكني حتى الموت! أكنت تتصور إذن أن بإمكانك قتلي، أنت الرجل العجوز ذو العاهة؟ كنت أظنك رجلاً منفراً، ولكن في الحقيقة وبكل بساطة أنت رجل غبي.

- إن الحب يجعل المرء غبياً، هذا معروف لدى الجميع يا نينا.

- بالله عليك لا تحدثني عن حبك مجدداً، فهذا يشعرني بتنامي الرغبة بقتلك.

- هل هذا ممكن؟ ولكن يا نينا هكذا يبدأ الأمر.

- ما الذي يبدأ هكذا؟

- الحب. هل سأستطيع أن أفتح عيني على هذا الافتتان؟ إن اعتزازي بنفسي شيء أعجز عن وصفه، يا نينا. ورغبة القتل ماتت في داخلي، وها هي ذي تولد من جديد في داخلك. لقد بدأت تحيين الآن فقط: هل أنت واعية لذلك؟

- إني لست واعية إلا بعمق غيظي.

- أنا الآن أتمتع بمشهد رائع: كنت أظن مثلي مثل كل إنسان بأن البعث ظاهرة تحدث بعد الموت. وها أنا أرى بعيني الحيتين بأنك تحوّلت إلي أنا.

- لم يسبق لي أن تلقيت شتيمة بمثل هذه الدناءة.

- إن عمق استياؤك يشهد على بدء حياتك يا نينا. من الآن فصاعداً ستكونين دائماً حانقة مثلما كنت أنا، لن تتقبلي سوء النية ستتفجرين باللعنة وبالافتتان، ستكونين خارقة الذكاء مثل الغضب، ولن تخافي بعد من أي شيء.

- هل انتهيت أيها الورم؟

- أنت تعلمين بأنني على حق.

- هذا خطأ! أنا لست أنت.

- ليس كلياً بعد، ولكن هذا لن يتأخر كثيراً.

- ماذا تعني؟

- ستعرفين ذلك قريباً. هذا رائع، إنني أتلفظ بأشياء تتحقق أمام عيني بمجرد التعبير عنها. لقد غدوت الآن نبي الحاضر لا المتنبئ بالمستقبل، نبيّ الحاضر، هل تفهمين؟

- أنا أفهم بأنك جننت.

- بل أنت التي أصبحت كذلك، كما ستصبحين كل ما تبقى يا نينا، أنا لم أشعر قط بمثل هذا الافتتان.

- أين مهدئاتك؟

- لدي الأبدية كلها لأهدأ بعد أن تقتليني يا نينا.

- ماذا تقول؟

- دعيني أتكلم. ما أريد قوله مهم جداً. شئت ذلك أم أبيت، أنت تتحولين إلى نسخة عني في كل تحوُّل يطرأ على ذاتي ينتظرني شخص جدير بالحب: في المرة الأولى كانت ليوبولدين، وكنت أنا الذي قتلتها، وفي المرة الثانية كنتِ أنت، وأنت التي ستقتلينني. هذا هو العدل أليس كذلك؟ إنني سعيد جداً لأن هذا سيكون بيدك: بفضلي، أنت على وشك اكتشاف ما هو الحب.

- بفضلك أنت تعلمت ما هو الذهول.

- ألا ترين؟ إنك أنت التي قلت ذلك. الحب يبدأ بالذهول.

- ولكنك قبل قليل، قلت بأنه يبدأ بالرغبة في القتل.

- ليس هناك اختلاف بين القولين اصغي إلى ما يتصاعد في داخلك يا نينا: تحسسي هذا الذهول الرهيب. هل سبق لك أن أصغيت إلى سيمفونية معزوفة بهذه الطريقة الرائعة؟ هذا تناغم أنجح وأدق من أن يشعر به الآخرون. هل أنت واعية بالتنوع

المخيف للآلات؟ من تناسقها غير المضطرب لا يمكن أن يصدر إلا نغمات متنافرة، ومع ذلك يا نينا هل سبق لك أن سمعت شيئاً أجمل من ذلك؟ فهذه الحركات التي تتراكب من خلالك بالعشرات تحوّل جمجمتك إلى كاتدرائية، وتجعل من جسدك صندوق أصوات مبهمة ولا متناهية، وتجعل جسدك النحيف يرتعش وغضاريفك تتراخى. هكذا فإن أمراً قد لا يمكن تسميته يتملكك الآن.

لحظة صمت. وانكفأ رأس الصحفية إلى الخلف.

- ثقلت عليك جمجمتك أليس كذلك؟ إنني أعرف هذا. سترين أنك لن تتعودي على هذا أبداً.

- أتعود على ماذا؟

- على ما يتعذر تسميته. حاولي أن ترفعي رأسك يا نينا. مهما كانت جمجمتك ثقيلة وانظري إليّ.

استجاب المخلوق للأمر بجهد:

- اعترفي بأنه ورغم العقبات فإن هذا بالغ اللطف بالتأكيد. أنا سعيد لأنك فهمتِ أخيراً. تصوّري ما كان عليه موت ليوبولدين. منذ قليل بدت لي لحظة الموت قاسية لأنني كنت أزحف بالمعنى المزدوج للكلمة. ولكن الانتقال من الحياة إلى الموت في غمرة النشوة، هو مجرد شكلي. لماذا؟ لأنه في لحظات كهذه فنحن لا نعرف حتى هل متنا أو أننا ما زلنا أحياء. سيكون مجانباً للحقيقة القول بأن ابنة خالي ماتت دون أن تتألم أو دون أن تعرف بأنها ستتألم على غرار أولئك الذين يموتون وهم نِيام. فالحقيقة هي أنها ماتت دون أن تموت. لأنها لم تكن قبل موتها أكثر حياة.

- حذار، ما قلته الآن يفوح بالبلاغة الطاشية.

- وما تحسينه أنت أهو بلاغة طاشية يا نينا؟ انظري إليّ. أيها المسخ الصغير الفاتن، يجب أن تتعودي على احتقار منطق الآخرين. عليك، منذ الآن إذن أن تتعودي على أن تكوني وحيدة. لا تأسفي على ذلك.

- أنت تهينني.

- كم هو لطيف قولك هذا.

- تعرف أن اللطف غريب عن هذه الحكاية.

- لا تقلقي، ستجدينني في كل انتشاء تشعرين به.

- هل سيحدث هذا لي دائماً؟

- لأقُل الحق. لم أحس بنشوة منذ خمس وستين عاماً ونصف العام. ولكن النشوة التي أحسها في هذه اللحظة تمحو الزمن الضائع. كما لو أنه لم يكن موجوداً. ينبغي أن تتعودي على تجاهل الروزنامة.

- هذا مبشّر.

- لا تكوني حزينة يا مسخي العزيز. لا تنسي أنني أحبك. والحب أبدي كما تعرفين.

- أنت تعرف أن مثل هذه العبارات الدارجة تتخذ في فم حائز على نوبل في الأدب مذاقاً لا يقاوم؟

- إنك لا تصدقين بأنني لم أحسن القول. حين يبلغ المرء ما قد بلغته أنا في الحذلقة فلن يستطيع أحد أن يتفوّه بتفاهة دون أن يغير شكلها. ودون أن يعطيها نبرة المفارقات الأشد غرابة. كم من الكتّاب سلكوا هذا الدرب بهدف واحد هو الوصول ذات يوم

إلى ما وراء المواضعات إلى ضرب من no man’s land حيث تكون الكلمة دائماً عذراء. ربما كان هذا الحبل بلا دنس. قول الكلمات الأقرب إلى الذوق السيئ لسيئ مع البقاء في نوع من السلام الخارق مترفّعاً دوماً عن العراك، مترفّعاً عن الصيحات الساخرة. أنا آخر فرد في العالم يستطيع القول «أنا أحبك» دون أن يكون فاجراً. كم أنت محظوظة.

- أهذا حظّ؟ ألن يكون هذا لعنة.

- بل حظ يا نينا. تذكري أن حياتك من دوني ستكون مضجرة!

- ماذا تعرف أنت عن حياتي؟

- هذا يفقأ العين. ألم تقولي بأنك كنت فضولية صغيرة قذرة؟ مع مرور الزمن ستضجرين آجلاً أم عاجلاً. ينبغي أن تتوقفي عن الاهتمام بقذارات الآخرين، ينبغي أن تخلقي قذاراتك أنت، ومن دوني لن تكوني أبداً قادرة على ذلك. من الآن فصاعداً، أيتها المسخ. ستدخلين عالم المبادرات الإلهية للمبدعين.

- صحيح أنني أحسّ في داخلي بمبادرة تبلبلني.

- هذا طبيعي، الشك والخوف هما المساعدان للمبادرات العظيمة، شيئاً فشيئاً، ستتعلمين بأن هذا القلق هو جزء من المتعة. وأنت في حاجة إلى المتعة، يا نينا، أليس كذلك؟ من المؤكد أنني سأعلمك كل شيء وسأمنحك كل شيء. بدءاً بالحب، يا مسخي العزيز، أنا أرتعد لفكرة أنك من دوني ما كنت لتعرفين الحب. منذ دقائق كنا نتحدث عن الأفعال الناقصة: أتعرفين بأن فعل «أحب» هو الفعل الأكثر نقصاً من بين الأفعال؟

- ما معنى هذا الكلام؟

- إنه لا يتصرف إلا في صيغة المتكلم. صيغ الجمع فيه ليس قط إلا صيغة المفرد المستتر.

- هذا وهم.

- لا ، أبداً، ألم أبرهن لك بأنه حينما يتحابّ شخصان فلا بد أن يختفي أحدهما لإعادة تشكيل الفرد الأحد؟

- لن تقول لي بأنك قتلت ليوبولدين لتحترم مثلك الأعلى النحوي؟

- يبدو لك السبب تافهاً جداً؟ أتعرفين ضرورة قصوى أعظم من النحو؟ تعلمين، يا مسخي العزيز، أنه لو لم يوجد النحو والصرف لما كنا حتى على وعي بكوننا أفراداً متمايزين ولما كان هذا الحوار الراقي ليتحقق.

- واحسرتاه لا سمح الله.

- مهلاً. لا توقفي متعتك.

- متعتي؟ لا وجود لأثر متعة في داخلي، لا أحس بأي شيء. ما خلا الرغبة العارمة في قتلك.

- حسناً، إنك إذن لا تتخذين القرارات بسرعة. يا مسخي العزيز. منذ عشر دقائق وأنا أحاول جاهداً أن أدفعك لاتخاذ قرار لذلك بشفافية لا مثيل لها. حرضتك ودفعتك بقوة لأنتزع منك آخر وساوسك. ورغم ذلك لم تنتقلي بعد للفعل. ماذا تنتظرين يا حبي العزيز؟

- يصعب علي تصديق أنك تريد هذا بالفعل.

- أعطيك كلمة شرف.

- إضافة إلى ذلك، أنا لست معتادة.

- ستعتادين.

- أنا خائفة.

- هذا أحسن.

- وإذا لم أفعل ذلك.

- سيغدو الهواء ثقيلاً. لا يُطاق، صدقيني. ففي النقطة التي وصلنا إليها لم يعد لك الخيار. ثم إنك ستمنحيني الفرصة الوحيدة لأموت في الظروف نفسها التي ماتت فيها ليوبولدين. وسأعرف أخيراً ما عاشته. هيا، يا مسخي، أنا جاهز.

ونفذت الصحفية العمل بإتقان. بنحو سريع ونظيف. فالمدرسة الكلاسيكية لا ترتكب أبداً أخطاء ذوق. وحين انتهت. أوقفت المسجلة وجلست وسط الأريكة. كانت هادئة جداً وإذا ما بدأت تكلم نفسها فلم يكن ذلك بسبب خلل عقلي. كانت تتكلم كما لو أنها تكلم صديقاً حميماً. بلطف جذل بعض الشيء.

- عزيزي العجوز. أوشكت على الإيقاع بي. كان كلامك يغضبني بنحو لا يوصف. حتى إنني كنت على وشك فقدان عقلي. وأنا الآن، أشعر بأنني أفضل، علي أن أعترف بأنك كنت على حق: الخنق مهمة ممتعة جداً.

وتأمل المسخ يديه بإعجاب.

إن الدروب المؤدية إلى الله غامضة، أشد غموضاً من الطرق المؤدية إلى النجاح.

بعد هذا الحدث. حدثت اندفاعة حقيقية لقراءة أعمال بريتكستا طاش وبعد عشر سنوات صارت أعماله من الكلاسيكيات.

آميلي نوثومب

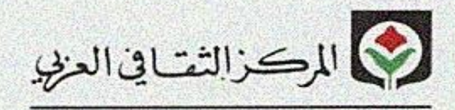
نظافة القاتل

دفعت هذه الرواية، بالكاتبة الروائية البلجيكية "آميلي نوثومب" إلى الواجهة، ولا تزال. فقد حازت هذه الرواية على عدة جوائز هامّة (رينيه فاليه، آلان فورنييه)، وتحوّلت إلى فيلم سينمائي أخرجه روغييري، واقتبسها للمسرح ديديه لانغ، وللأوبرا دانيال شال.

عبر حكاية **الكاتب بريتكستا طاش**، الحائز على جائزة نوبل، وحواراته مع مجموعة من الصحافيين، تغوص نوثومب في السراديب المظلة للنفس البشريّة، مقدّمة نصاً متعدد الأصوات حافلاً بصراع الرؤى والأفكار.

بلغة حادة قاسية، مضحكة وكاريكاتيرية أيضاً، ترسم مصائر الشخصيّات، وخاصة شخصيّة **طاش** الكاتب الذي كان يظنّ أنه يمكن أنه يتحكّم بمصيره، بعد أن بلغ الـ 83 عاماً، والذي يتوقع موته في خلال شهرين. ولكن فتاة صحافيّة تكشف عقم هذا التفكير وتعيد طرح حياته أمامه، بما فيها من الكذب والقسوة، والأوهام... بحيث يضطر للزحف أمامها طالباً إليها الكفّ عن كشف تهافت أفكاره، وإنهاء حياته.

رواية مكتوبة بلغة حوارية مباشرة، خالية من مطوّلات السرد والوصف، لتدخل مباشرة إلى الأفكار التي أرادت نوثومب أن توصلها للقارئ.



الدار البيضاء: ص.ب 4006 (سيدنا)
بيروت: ص.ب: 113/5158
www.ccaedition.com
markaz@wanadoo.net.ma


ISBN 978-9953-68-461-8

لوحة الغلاف: تفصيل من ماغريت